الغياب...

قصص

الدكتور أحمد زياد محبّك

2026

الدكتور أحمد زياد محبك

الغياب...

مجموعة قصص

٢٠٢٦

العنوان: الغياب

النوع: قصص

المؤلف: الدكتور أحمد زياد مُحَبِّك ابن مصطفى

حلب – سورية

البريد الإلكتروني:

mohabek@gmail.com

هاتف المنزل : ٢١ ٢٦٤٢١٣٢ ٠٠٩٦٣

الهاتف الجوال والواتس: ٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢

مرتبة نزولا
من الأدنى إلى الأعلى

قصة كتبتها
قصة حكيتها
قصة سمعتها
قصة قرأتها
قصة عشتها
قصة تخيلتها
قصة كانت حلما
قصة لم أكتبها

حدائق

يرجع أحفادي من نزهة قصيرة إلى الحديقة العامة، ويأخذون في الحديث عنها فرحين مبتهجين، وهم يضجون ويصخبون ويضحكون ويتسابقون إلى الكلام في فوضى، عصافير تتطاير في قفص وتتزاحم وتغرد.

الأشجار والبرك والطيور والناس والشمس والأزاهير والنوافير والورق الأخضر والأصفر والأحمر المتساقط فوق المروج الخضر والأولاد والمراجيح والأصوات والكبار والصغار والعجائز والمقاعد والباعة.

عشت معهم نزهتهم، عشت معهم زياراتي لها، وبدأت أحدثهم عنها، بهتوا، دهشوا، صمتوا.

وانفجرت تعليقاتهم: هل كنت معنا؟ متى زرتها؟ هل تعرفها؟ حكيت عن أشياء ما رأيناها؟ أو لم ننتبه لها؟

يعلق سمير:

–جدي، كأن حديقتك غير حديقتنا.

ويرد عليه أخوه خالد:

–هي هي، لكن حديقة جدي كانت أيام زمان، واليوم تغيَّرت.

وتعلق هناء:

–نعم، هي تغيرت، لكن، نحن حسبناها غيرها لأن جدي حكى لنا عنها، كلامه عليها هو جعلنا نظنها غيرها.

في كل مرة أزورها كنت أجدها مختلفة، واليوم أجدها مختلفة أكثر.

الفراشة...

القهوة فويق نار ضعيفة كأنها بقايا شمعة تكاد تنطفئ، يقف أمامها بقامته المديدة، محني الظهر، يُشرف عليها بحنان، يتأمَّلها بعينين انطفأ فيهما البريق، كمن يشرف على طفل يُحْتَضَر، يَرْقُبُها، منتظرًا، وهي تنبض ببطء، كقلب متعب.

يتنسَّم شذاها يعبق به الكون، يتسلَّل عبر النوافذ والأبواب، يملأ القارات والمحيطات، البوادي والجبال والصحارى، هي ليست قهوته، هي قهوتها، لا قهوة إلا قهوتها، لا أستطيع أن أُعِدَّ قهوة مثل قهوتها، هو البن نفسه، ولكن القهوة ليست هي قهوتها، أنا ساحر فاشل، أحاول استحضار قهوتها.

يحمل القهوة، مثلما يحمل البخورَ إلى معبدٍ قديس عجوز، يدلف من غرفته الصغيرة، إلى شرفته الضيقة، فوق منضدة صغيرة خشبية عتيقة، في فنجانين صغيرين، أحدهما محطم الحافة، والآخر مكسور الخاطر، بيد راعشة، عروقها الزرق نافرة، يصب بهدوء وبطء القهوة، كأنه يسكب روحه، وتأبى بعض القطرات إلا أن تنسكب، على الخشب المهترئ المشبع من قبل ببقايا قهوة عتيقة.

عمارات شاهقة تسد عليه السماء، النوافذ مغلقة، الناس نيام، الفجر يملأ الفضاء، ما تزال خيوط الشمس مختبئة وراء الأفق البعيد، لا أحد يراها، أو يحس بها.

يقعد أمام الفنجانين، في كرسي خشبي غير مريح، لا مسند له، يقعد، يده تمتد إلى أحد الفنجانين، ترتد، كأنه ينتظر.

فراشة ناعمة صغيرة ترف في فضاء الشرفة، تقترب من الفنجان، تقف على حافته.

ها قد وصل إليها شذاها، لبت الدعوة، لم يخب منه الرجاء.

يرقى أدراج القلعة، الأدراج الحجرية تلين تحت قدميه، تنطبع عليها مواقع عصاه الفضية، ترسم سُلَّمًا موسيقيًّا، مواقعُ قدميه، تدوّن لحنًا، يسمع نغماتِه كلُّ عاشق.

يصل إلى أقصى الدرجات، يقف، يلتفت، يطل بقامته السامقة على الفريق السياحي، يلقي نظرة النسر من تحت قبعته البيضاء، والواقية العريضة تغطي عينيه الزرقاوين، أحد عشر سائحًا، يرقون الأدراج في إثره، مشدوهين من انتصاب قامته، ورأسه المرفوع، وخطواته المتزنة، المرسومة في إيقاع موسيقي هادئ وقور.

أمضى عامين بعد التقاعد، أتقن فيهما الإيطالية، والإسبانية، كان من قبل يجيد الفرنسية والإنكليزية، قرر أن يعمل دليلًا سياحيًّا، هاويًا، متبرِّعًا، لا يتقاضى أي أجر، ولا يقبل أي هدية، هو مهندس معماري، وأستاذ جامعي، راتبه التقاعدي يكفيه ليعيش، بل يستضيف الفريق السياحي في مقهى القلعة، المشرف على المدينة، متعته في قصة يرويها لهم، لعلهم يحملون معهم إلى العالم كله تلك القصة التي جرت في القلعة.

– لن أحدثكم عن تاريخ القلعة، ولا عن الملوك ولا عن السلاطين الذين حكموا المدينة من داخل القلعة، ولا عن

الغزاة والفاتحين الذين غزوا القلعة وفتحوها، فدمروا أقسامًا منها، وبنوا اقسامًا، ذاكرتي لا تتسع لهم، بل لم أحفظ اسم أيٍّ منهم، ولا تهمني أسماؤهم، مع كل واحد منكم كتاب فيه كلّ شيء عن تاريخ القلعة، ولن يفيدكم تاريخها في شيء، سأروي لكم قصة جرت في القلعة مختلفة، لا تتعبوا أنفسكم في البحث عنها، لأنكم لن تجدوها في كل ما بين أيديكم من كتب عن القلعة.

وهم يخرجون من قاعة العرش، يقف، يلتفت إلى باب القاعة، يشير إلى حروف محفورة على الجدار، قرب الباب، ويتكلم لا بصوت دليل سياحي، لكن بصوت ملحن موسيقي، وهو يقول:

–انظروا إلى هذا النقش في الجدار، بل انظروا إلى هذه الحروف المحفورة في هذا الرخام الأبيض الصلد الناعم، هل تعرفون كيف حفرت؟ لم تحفر بمطرقة، ولا بإزميل، ولا بآلة حفر كهربائية، سأحكي لكم، هي قصة شاب أحب زميلة له في كلية الهندسة المعمارية، منذ السنة الأولى أحبها، ظل طوال سنوات الدراسة الخمس وهو يثبت لها حبه، يهديها الورود، يعطيها دفاتره، يساعدها على التحضير، ينجز لها المخططات والرسوم، يدعوها إلى فنجان قهوة، يمسك يدها، يحاول تقبيلها، يقول لها هامسا أحبك، يكتب لها الأشعار، وهي لا تصدق، قصة حب طويلة، في السنة الأخيرة، قام

الطلاب برحلة إلى القلعة، وهنا، في هذا المكان، حيث نقف نحن الآن، بعد الخروج من قاعة العرش، التفت إليها، وقال لها: أحبك، سألته: ما البرهان؟ نظر هنا إلى هذا الرخام الأبيض الأملس الناعم، انظروا إليه، بلَّ السبابة بريقه، هكذا، ثم وضع إصبعه على الرخام، وبدأ بهدوء يكتب حروف اسمها، هنا، كما ترون، وكما أمرر الآن إصبعي في الحروف المحفورة كالنهر في المرمر، سأقرأ عليكم اسمها، اسمعوا، أنصتوا أرجوكم، اسمها موسيقى، وها أنذا أمرر إصبعي فوق حروف اسمها، هل تسمعون الموسيقى وهي تملأ فضاء القلعة والمدينة والعالم، أصغوا جيدًا، ها هي ذي إصبعي تمشي في الاسم المحفور، كما يمشي القوس فوق الكمان، أرجوكم أصغوا: عائدة.

أعضاء الفريق السياحي مبهورون أمام هذا الدليل العجوز الشائخ، كأنهم أمام ساحر يمارس طقوسًا سحرية، خدع أبصارهم، سحر أسماعهم، يرون الاسم المحفور في الحجر الأملس وقطرات من الماء تسيل عليه، تقطر منه، كالدموع تجري على خدّ.

الأبراج تعزف الألحان، الحجارة في الأبهاء والأسوار والممرات والبوابات والمخازن والمستودعات وفي الأعمدة وفي التيجان وفي النقوش والتصاوير في الزخارف والمقرنصات في النواويس الحجرية وفي المقابر، كلها تردّد صدى الاسم،

من فتحات في سور القلعة حيث كانت تنطلق سهام المحاربين ينطلق الآن الاسم تحمله النسمات إلى المدينة تنشر الحروف في الفضاء كأنها غبار الطلع.

يسير أعضاء الفريق السياحي في إثره مذهولين، يمضي بهم إلى المقهى في أعلى منطقة في القلعة، تحتويهم مقاعد خشبية عتيقة، تمتد أمامهم مقاعد خشبية قديمة كأنها صنعت يوم بنيت القلعة، يطلون على خندق يحيط بالقلعة، مغمور بالماء، والشمس تنعكس عليه، فيتكسر النور على سطح الماء، ويتألق، كأنه سوار ذهبي، وتمتد أمامهم المدينة، بيوتها متناثرة متزاحمة متدافعة، كأنه خرجت من القلعة، وانتشرت في السهوب والحقول وسفوح الجبال المحيطة بالقلعة، مثلما يخرج جمهور كبير من المسرح بعد انتهاء العرض.

ويأتي النادل لهم بالقهوة.

وتنهال عليه الأسئلة عن عائدة وزميلها العاشق الساحر.

ينادي النادل، يطلب منه كرسيًّا، يضعه بجواره، يحضر له النادل فنجان قهوة، يضعه على المنضدة الخشبية العتيقة، مقابل الكرسي، يديم النظر إليه.

أعضاء الفريق ملتفون حول المنضدة كأعضاء جوقة موسيقية، أنظارهم تتنقل بين الفنجان والدليل السياحي، وقد

خلع قبعته، ووضعها إلى جانب الفنجان، عيناه على الفنجان، ما الذي سوف يحصل؟ أي ساحر هذا؟ هل سيتحرك الفنجان؟ هل سينفجر تحت تأثير نظراته؟ هل يتوقع مجيء أحد.

يلتفت العجوز إلى فضاء القلعة، ينادي بصوت كأنه يعزف على الكمان بوتر واحد، يعزف ويعزف ويعزف حتى ينقطع الوتر، يعزف: عاااااائداااااا.

وتنهمر دمعات من عينيه، يبل سبابته بدمعة، يمرر السبابة بهدوء على الخشب بجوار الفنجان، يرى الجميع مذهولين إصبعه ترسم بحروف محترقة: عائدة.

أستقبل صديقي عادل، وأقوده إلى غرفة الضيوف.

فور دخوله إلى الغرفة تلفت نظره الخزانة، بابها مفتوح، ورفوفها الزجاجية خالية، يسألني: "ما هذا؟ هل اقتحم الشقة لص وسرق كل ما فيها".

هو يعرفها من قبل، وكم وقف أمامها يتأملها.

كانت الأحب إلى قلبي، من بين قطع الأثاث كلها، خزانة من خشب فاخر، أوصيت بها النجار، فصنعها كما أريد، جوانبها الثلاث من زجاج فاخر، جانبها الخلفي مرآة عاكسة، رفوفها من زجاج فاخر.

كانت تغص بالتحف والهدايا والمقتنيات الصغيرة الجميلة المميزة.

قافلة جمال صغيرة ملونة من خشب، يقودها الحادي، ثلاث أهرامات، على قاعدة، يتقدمها أبو الهول، بحجم صغير جميل، من حجر مرمري، خيمة عربية صغيرة، قافلة من ثمانية أفيال، أسرة متكاملة، من عاج، وردة كريستالية صغيرة، مجسم صغير للكعبة المشرفة، مجسم صغير لقبة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجسم صغير لقبة الصخرة في القدس، لوحات كريستالية صغيرة تحمل آيات قرآنية، بركة صغيرة فيها نافورة، زهرات لوتس ثلاث من

كريستال، مكحلة نحاسية جميلة، ثلاثة قماقم صغيرة بحجوم متدرجة، شمعدانات كريستالية، وشموع صغيرة معطرة.

هدايا صغيرة اشتريتها في أثناء أسفاري إلى باريس واستكهولم والمغرب العربي والقاهرة وأدائي فريضة الحج.

عندما كانت زوجتي تريد مسحها وتنظيفها من الغبار، كانت تعني بها عناية فائقة، تخشى أن يتحطم بعضها، كنت أساعدها على تنظيفها، حرصًا عليها.

بين حين وآخر كنت أعيد توزيعها على الرفوف، وأوزعها توزيعا جديدا، وأرتبها أجمل ترتيب.

أولادي، وكانوا صغارًا، أمنعهم من لمس زجاج الخزانة، وكم توسل إلي بعضهم، وهم أطفال، أن أعطيهم جملا صغيرا أو فيلا، وكنت آبى أن أمنحهم أيًّا منها.

حتى أحفادي، كم كانوا يلتفون حولها، ويقفون متأملين، وهم يتمنون الحصول ولو على هدية واحدة، وأنا أزجرهم، وأمنعهم من الاقتراب منها.

كنت أقفل بالمفتاح بابها، وأحتفظ بالمفتاح في مكان لا يعرفه غير زوجتي.

أصبح عمرها ستين عاما، هي أجمل تذكاراتي، وقد تجاوزت الخامسة والسبعين، منذ أن كنت في الخامسة عشرة من عمري بدأت الاهتمام بها.

ويسألني صديقي: "أخبرني، من سرقها؟"

أمس فتحت بابها، وكان الأولاد عندي والأحفاد، وقلت لهم: "خذوا كل ما فيها".

فرح

في الرصيف المزدحم، عند الزاوية، أنعطف، وأنا مندفع في جنون، وإذا هي أمامي، نقف، كأننا صُدِمْنَا، هذه أنت؟ أي مصادفة عجيبة، أدخل في عينيها، تدخل في عيني، ألتقط أنفاسها العطرة، تلتقط أنفاسي اللاهثة، يدها ناعمة دافئة، يدي راعشة باردة.

–تعالي معي، سأشتري جريدة، عند آخر الرصيف، هناك؟

–وهل أخبار السياسة أهم مني؟

–لا، ولكن سأقرأ نتائج الانتخابات.

–خمس سنوات مرت، ولم تتصل؟

–أضعت رقم هاتفك، بدلت الهاتف الجوال.

–وأنا أضعت رقم هاتفك، سُرِقَ مني الهاتف الجوال.

–تعالي معي، نشتري الجريدة، وتشاركيني الفرحة.

–أنا مستعجلة.

–انتظريني هنا، خمس دقائق.

لم أسمع ماذا قالت، لا أعرف كيف استللت يدي من يدها، أضعت الدفء، تركتها، ومضيت، أركض على الرصيف.

خرجت من البيت، وما عدت أذكر أين يقع أقرب محل لبيع الجرائد، اتصل بي صديق، وقال: "أُعلنت نتائج الانتخابات في الجريدة"، نزلت إلى الشارع كالمجنون.

أرجع على الرصيف خطوتين، سأرجع إليها، من مكان آخر أشتري الجريدة، أقف، أتردد، ألتفت، كالأهوج باتجاه بائع الجرائد، يصك سمعي كلمة: "أعمى؟"، صدمتُه، كاد يقع، لم أجد الوقت لكي ألتفت وأعتذر، ضعت بين اللامبالاة، وبين الاعتذار، نعم أنا أعمى، أعماني الخبر، وأعمتني هي، ما عدت أرى، ما يزال محل بائع الجرائد بعيدا، لا أراه، هل انتقل من محله؟

أرجع بين يدي الجريدة، أقلب صفحاتها العشرين، أين الإعلان عن نتائج الانتخابات، أسمع كلمات أخرى، ربما شتائم، لم أسمعها جيدا، لم أفهمها، تغاضيت عنها، أصل إلى الزاوية، أقف في الزحام، أين هي؟ بائع سجائر على الرصيف، أسأله لاهثًا:

–كانت هنا سيدة، في معطف أحمر؟ هل رأيتها؟

لم أفهم ماذا قال لي، ما عدت أفهم أي شيء، رحتُ وجئت عشر مرات على الرصيف، ضاعت، أقف، أتصفح الجريدة، في الزحام، أعبُرُ الشارع، أبواق السيارات تصكُّ سمعي، لم أنتبه إلى إشارة المرور، أقرأ، أقرأ، أقرأ بالطول،

أقرأ بالعرض، لا أكاد أرى الحروف، أقرأ، زاغ بصري، ما عدت أرى.

في عمود الكهرباء سلة معلقة، أرمي فيها الجريدة، وأمشي.

الخزانة

يقف أمام خزانتها الخشبية.

رفٌّ عميق، في مقدِّمته قط أبيض صغير، باسط قدميه، لا تعرف أنائم هو أم يقظ، دُمًى كثيرة وألعاب، دمية تكاد تضحك، دمية ترفّ عيناها، دمية تكاد تتكلم، دب أبيض صغير، غارق في نوم شتوي طويل، طواحين هواء، تحس بها كأنها تدور، أراجيح تكاد تراها تتأرجح، غابة صغيرة، شجيرات، قطيع فيلة، زرافات، سهل أخضر واسع، بيت ريفي، قطيع أغنام ترعى، أسماك صغيرة ملونة وفراشات تتدلى بخيوط رفيعة من سقف الخزانة، لتسبح بمرح في فضائها، وفي العمق صورتها في إطار صغير.

أنتِ اكتفيت بسنواتك التسع، وتركتني أعيش حتى التسعين.

الخبز ...

ينزل كل يوم باكرًا، مع شروق الشمس، يتمشى نصف ساعة، يتلقى أشعتها الذهبية، يتنسم فوح الصباح المنعش، قبل بدء ازدحام الشارع بالسيارات، وتلوث الجو بالدخان والضجيج.

يرجع حاملًا ربطة خبز، يقرع عليها الباب، يرمي لها نصف الأرغفة، محتفظًا لنفسه بالنصف الباقي.

*

مدت من شقتها إلى شقته أسلاكًا كهربائية، لم يعد قادرًا على دفع فاتورة الكهرباء.

وصلت شبكة مياه شقته، بشبكة مياه شقتها، خزان الماء الخاص بشقته ناله الصدأ، وتشقق، وما عاد يصلح.

حتى أنابيب المياه في شقته صدئت، وانسدت كالشرايين، مدته بأنابيب من شقتها.

غير مرة نسي مفتاح شقته في الداخل، وغير مرة اضطر إلى كسر قفل الباب أو خلعه.

نصبت جسرًا خشبيًّا ضيقًا بين شرفة شقتها، وشرفة شقته، تعبر عليها إلى شقته، وتفتح له الباب.

كل أصص الزهر التي كانت في شرفته يبست، أخذت تتردد عليها مرتين في الأسبوع وتسقيها، ولكنها تأبى أن تنتعش، نقلتها إلى شقتها، وبدأت ترعاها.

حتى الخادمة التي كانت تأتيه كل صباح تهيئ له الشقة وتمسح الغبار، وتطهو له الطعام، هجرته، وما عادت تتردد عليه، لأنه لم يستطع أن يزيد لها في مرتبها الشهري.

تطوعت هي لترتيب شقته في الأسبوع مرة.

الممرض الذي كان يأتيه كل شهر ليعطيه حقنة في الوريد، انقطع عنه، فتبرعت هي لإعطائه هذه الحقنة.

تكاثر البعوض في المدينة، فوضعت على باب شرفته مثلما وضعت على باب شرفتها ما يمنع دخول البعوض ويسمح بدخول الهواء.

اشتركت في الشبكة العنكبوتية، وضعت جهار البث فوق باب الشقة، المقابل لشقته، وسمحت للجهاز أن ينشر البث إلى شقته، وإن لم يكن لديه من يراسله، سواها.

*

ما يزال هذا دأبه.

كل يوم يشتري ربطة الخبز.

هي المظهر الوحيد من مظاهر الحياة الذي يمارسه كل صباح.

*

صنعت له قالب كاتو ووضعت فيه سبع شمعات.

ساعدته بأنفاسها على إطفاء الشمعات، وأمسكت يده الراعشة، وشاركته في قسم قالب الكاتو، خوفًا على يده من السكين، التي لم تكن في الحقيقة حادَّة ولا قاطعة.

وحدها من احتفل بعيد ميلاده.

*

أولاده الذكور الثلاثة كلهم غادروا البلاد، قبل عشرين عامًا.

ابنتاه الاثنتان غادرتا البلاد قبل عشرة أعوام.

زوجته توفيت قبل خمسة أعوام.

*

جارته التي تسكن في الشقة المقابلة لشقته في الدور الثاني في عمارة من عشرين طابقا، توفي عنها زوجها وغادرها ولدها الوحيد، وهاجر إلى حيث لا تعرف.

ترجع من الوظيفة في الثالثة مرهقة.

*

تحامل على نفسه، ونزل من العمارة، لا يعرف إلى أين، واشترى لها قالب كاتو، ووضع فيه أربع شمعات، احتفاء بعيد ميلادها.

*

كعادته كل يوم، نزل لشراء ربطة خبز.

كان يوم عطلة، لا حركة في الشارع، لا حياة.

هو يوم شتوي معتم، بارد شديد البرودة، أحس أنه خرج باكرا، حتى ربما قبل أن يبدأ الفرن ببيع الخبز.

يسير ببطء، ملتفا بمعطفه الشتوي الثقيل، مطأطئا برأسه نحو الأرض، كأنه يداري بوجهه ريحا قارسة.

فجأة هزه نباح كلب، التفت فإذا بكلب أسود يبرز له برأسه الكبير من قبو مظلم في عمارة قديمة مهجورة.

طالما مر بهذه العمارة، كأنه ما كان يراها من قبل.

تغير كل شيء في داخله، لا يعرف، ليس هو الذعر ولا الدهشة ولا المفاجأة.

الكلب فقط مدّ رأسه، ونبح، ثم رجع إلى عمق القبو.

لا يعرف، هل هو وهم؟ هل هو واقع وحقيقة؟

*

أقلع عن شـــراء الخبز، رجع، تســـلق درج العمارة مسرعًا، في أقصى ما يستطيع، شيء ما يتحرك في داخله، لا يعرف ما هو.

قرع عليها الباب، كعادته، وقرع، وقرع، لم تفتح.

ثم جاءه صوتها من الداخل كالنباح الطويل:

- ما عدت أريد الخبز.

كان يوما عصيبًا، لا يعرف هو كيف أمضاه، ولا تعرف هي أيضا كيف أمضته.

*

في صـــباح اليوم التالي دخلت الشـــمس من نافذة غرفته، ســـقطت أشـــعتها الباهتة على جســـد ممدد على السرير، وفي الغطاء عند الأسفل من أسفل السرة بقعة دم، ليست كبيرة.

بين هضبتين

صديقي يتقدمني بخطوات عجلى، نحن في حقل حنطة، سنابل القمح تعلو، تمتد من حولنا في كل الجهات، حتى الأفق، نحن في بحر يتموج بنسمات ناعمة، السنابل خضراء ممتلئة، تتخلّلُها شقائق النعمان، عصافير صغيرة وفراشات تتطاير، هناك يعيش جدي، بين هضبتين، عنده غنمات ثلاث، وخلية نحل، هكذا أكاد أسمع صديقي، وهو يعدو أمامي، جدي يفرك السنابل، يأكل حبات القمح الأخضر، يكتفي باللبن والعسل، أنا سأعيش مثل جده، غير بعيد من الهضبتين منحدر هادئ، فيه نبع ماء عذب، فوّار، ينبع من خلال حبيبات الرمل، يشرب منه جدي، الهضبتان تقتربان، تتألقان تحت شمس نيسان، شمس دافئة تدغدغنا، قبَّتان من فضة، ترابهما كلسي أبيض ناعم، في قمة كل واحدة غرفة صغيرة مدورة، بناهما جدي بيديه من تربة حمراء نقية، دافئتان، دفؤهما منعش صيفا شتاء، يدِّخر في واحدة اللبن، وفي الأخرى العسل، ينام بينهما، في الهواء الطلق، هو فيهما بين شرق وغرب، بينهما يمضي جلَّ يومه، أتخيَّل جده عجوزًا شائخًا يدبّ على عصا، محدودب الظهر، ليس فيه غير الجلد والعظم، شاحب العينين، باهت النظر، يقول لي: جدي جهم طويل، عريض الكتفين، عيناه غائرتان في

محجرين عميقين، له نظرة نسر، قوامه مشدود، لا يتكئ على عصا، صوته زمجرة رعد، صديقي يسبقني يعدو كطفل يركض إلى أبويه، الهضبتان تلوحان لي خفاقتين، أودُّ لو أتسلقهما، لو أتدحرج عليهما، تبدوان أكبر مما توقعت، ناعمتين، والغرفتان حمراوان كالشمس، أشتهي العسل المخبوء في هذه، واللبن المدخر هناك، لا أعرف أين غاب صديقي، تاه مني الحقل، غابت الهضبتان.

وأنهض، أمضي نهاري، بين سرور واستياء.

دقات ...على النحاس

دقّ، دقّ، دقّ، ما تزال دقات مطارق النحاسين على النحاس الأصفر ترنّ في خلايا جسمي كله، ما أزال أسمعها، كأنها ضربات قلبي، كأني لم أغادر سوق النحاسين، كأنني ما أزال فيه.

*

أربع ساعات وأنا أنتظر وصول طائرتها، تأخرت في الإقلاع، إلى جانبي على المقعد في قاعة الانتظار باقة زهر، وحقيبة جلدية صغيرة فيها رسائلها، خمس سنوات والرسائل الورقية فيما بيننا تتوارد، ولم تنقطع.

واليوم أنا أنتظر لقاءها، يخرج القادمون من بوابة الوصول، مثل مولود يطل على الحياة، عناق وقُبَلٌ وأزاهير ودموع وزغاريد، عربات مثقلة بالحقائب، وصلت طائرتها، لكن، حتى من بوابة القادمين تأخر ظهورها، كيف سأعرفها؟ طوال خمس سنوات لم نتبادل الصور، بالحب عشنا الكلمات، عشنا الحب كله، ومع ذلك لا أعرف: هل سأعرفها فور ظهورها؟ ها هي ذي تشير إليَّ، رافعة بيدها حقيبة جلدية صغيرة، كأنها حقيبتي، تلوح لي بها، وفي يدها الأخرى باقة زهر، ليس معها أي حقيبة، كنا اتفقنا إذا التقينا أن نتبادل رسائلنا، أعيد إليها رسائلها، وتعيد إليّ رسائلي، لم نعد بحاجة

إلى الرسائل، هي نفسها، يا إلهي، ما أجملها، تنورة زرقاء، وقميص أبيض رقيق ناعم، ومنديل حريري أصفر يلتف حول العنق، في ربطة صغيرة كالفراشة، وشعر أشقر طويل يتطاير.

أعانقها، أشدها من خصرها إليَّ، ترمي يديها حول عنقي، نهداها يدخلان في صدري، أحس فيهما الدفء والنعومة، وجهها في وجهي، أدخل في عينيها، أرفعها إلى أعلى، أدور بها في حلقات، أستقبل أنفاسها العطرة، ترفع قدميها، تحلّق، أحس بتنورتها تتطاير، ضحكتها تملأ الكون.

وتنطلق بنا سيارة الأجرة، وأنا وهي في المقعد الخلفي، ملتصقان ببعض، النوافذ مفتوحة، شعرها يتطاير، فتحة القميص تتسع، الهواء ينعشنا، الأشجار والحقول تتراجع بسرعة والسيارة منطلقة، كأنها تريد مثلنا أن تسبق الزمن، تريد تعويض خمس سنوات من الانتظار، الأشجار والحقول وأزاهير الربيع تمضي إلى الخلف بسرعة، تتداخل الألوان وتتمازج، حمرة شقائق النعمان وصفرة النراجس وخضرة الزروع والأشجار، ألوان يتداخل بعضها في بعض مثل ختام سيمفونية، كل الآلات تعزف، تتَّحد الأنغام في لحن الختام، ختام بُعْدِنا، بداية لقائنا.

صباح فخري يصدح بصوته المُعَطَّر بتاريخ الجدود:

درب حلب ومشيته كلُّهْ شجر زيتوني

سقف السيارة يطير، ونحن نطير، نحلق في الفضاء، أراها في ثوب الزفاف الأبيض، أمسك يدها، نحلّق معًا، والسيارة تحتنا تنطلق، ونحن ما نزال فوقها، أضمها، إليَّ، أقبّلها، نحن في عرس سماوي، الناس على الرصيفين ينظرون إلينا مبتهجين، نرمي إليهم باقة الزهر، ونهبط إلى مقعدنا في السيارة.

نجتاز الشوارع والأرصفة والعمارات وإشارات المرور، هل هذه هي مدينتي؟ كأنني أدخلها أول مرة، حتى الوجوه التي كانت بالنسبة إليَّ مألوفة أراها جديدة، هل هذه هي حقا مدينتي، كأنني أدخلها أول مرة، الوجوه يعلوها الفرح، فيها نضارة وحياة، الناس طيبون، يضحكون، يشيرون إلينا مرحبين، حتى شرطي المرور يشير إلينا، يسمح لنا بتجاوز الإشارة، وهو يلقي علينا تحيته، وبسمة مشرقة تملأ وجهه.

مطعم فخم يحتوينا، مقاعد من الأبنوس العريق مطعمة بالعاج، ومناضد خشبية واسعة، وأضواء خافتة، ونحن وحدنا، الخدم كانوا بانتظارنا، وتصطف الأطباق على المائدة، كأنها جزر اليابان وأندنوسيا، مدير المطعم يقدم لنا بنفسه الطبق المشتهى: الكباب الحلبي، كأنني أتذوقه أول مرة، حقيقة، هو جديد مختلف، متميز، كأنني ولدت اليوم.

وصباح فخري يشدو لنا أيضًا:

خمرةَ الحب اسقنيها

عيشةٌ لا حب فيها
جدولٌ لا ماء فيه

هذا هو المطعم الذي كنت أرتاده مع أبي نواس، وعمر الخيام، ينضم إلينا ابن خفاجة قادمًا من الأندلس، يصحبه زرياب، يعزف أجمل الألحان، ونرشف معًا خمرة لم تعتصر، في كؤوس من عسجد، وينضم إلينا عدد من الندامى: أحمد شوقي، ومحمد عبد الوهاب، وأحمد رامي، وبليغ حمدي، نتناشد الأشعار، اليوم أنتِ وحدك نديمي، لا أبغي سواك من أحد، لا الصديق ولا النديم ولا الخلان، أنت وحدك الكل في الكل.

ويمتلئ المطعم بالرُّوَّاد، كأنهم قادمون لأجلنا، كأنهم مدعوون، جاؤوا في كامل زينتهم، كأنهم جاؤوا إلى حفل زفاف، كم هم كرماء وسمحاء ومتألقون، وجوه نضرة، فيها حيوية وشباب.

ألتفت إليها كأنني أسألها، تقول: " لا أجد غير كلمة أحبك، وهي وحدها لا تكفي".

أهمس لها: "وأنا لا أجد غير كلمة أحبك، وهي وحدها لا تكفي".

نحن الذين ملأنا مئات الرسائل طوال خمس سنوات بالكلام، لا أعرف كيف يضيع منا الآن الكلام، الكون كله يحتفي بنا، كأننا في مهرجان.

يقول لي صاحب المطعم: " أنتم ضيفي، بحضوركم حلَّت البركة".

ويأبى أن يأخذ ثمن ما تناولنا من طعام، أفكُّ من زناري كيس دنانير ذهبية، نفحني إياه هارون الرشيد، مقابل كتاب في النحو كنت أهديته إياه، أناول كيس الدنانير إلى النادل الذي قدم لنا أجمل الخدمات، يفتح الكيس وينثر الدنانير الذهبية على الخُدَّام والطباخين.

نمضي إلى حديقة واسعة جميلة، تتوسط المدينة، نقعد إلى حافة بركة، تظلِّلنا شجرة توت كبيرة، تمتد أغصانها في فضاء رحب، تتوسط البركة نافورة، الماء يتقافز منها إلى أعلى، وفي ذُرَاه يتألق شعاع الشمس، فيرسم قوس قزح، تطوف فوق مياه البركة إوزّات بيض، بأعناق طويلة، نصنع من رسائلنا زوارق صغيرة، نرسلها في مياه البركة، فتمشي الهوينا، كأنها تسافر إلى المستحيل، وسرعان ما نحمل الرسائل كلها، ونطيرها فوق البركة، فإذا هي حمامات بيض تحلق، وتطير، تملأ فضاء الحديقة.

نغادر الحديقة، فإذا نحن أمام ساعة باب الفرج، ترفع رأسها إلى البرج، جيدها اللؤلؤي يتألق، عقارب الساعة تتوقف عن الدوران، قد تكون ساعة بيك بن أروع، وقد يكون برج إيفل أعلى، وقد يكون برج القاهرة أجمل، ولكن ساعة باب الفرج الآن، هي عندي الأحبُّ إلى قلبي، والأجمل، لأنك أنت

معي، لا أفكر في الدخول في تمثال الحرية، والإطلال من نافذة في التاج على القارات، أنت الحرية الحق، في عينيك أرى العالم كله.

نصل إلى باب النصر، نتأمل الباب الحديدي العملاق، المطرز بمسامير حديدية ضخمة كأنها دُقَّتْ في جدار الزمن، أنت النصر، وأنت البهاء.

تقف، تصغي، تقول لي: "اسمع"، وأصغي، تهتف، بمرح: "هذه ضربات مطارق النحاسين على النحاس، هل السوق قريب؟ أرجوك، خذني إلى السوق".

أقف، أتردَّد، تقول: "روتْ لي جدتي أن جدي الأول نور الدين كان نحّاسًا، مِن أمهر النحاسين في فاس، كان شيخ النحاسين، وقد غادر فاس قبل ألف عام إلى حلب، ليتعلَّم أفانين الطرق على النحاس، وفي حلب، أحب صبية، وتزوجها، وأقام معها في حلب، ولم يرجع، أمي سمَّتْني باسمها".

يتناهى إلى سمعي دقات النحاسين، أتردَّد، يغتلي في داخلي قلق، لا أعرف سره.

تُفْلِتُ يدي، تعبر الشارع، تسبقني، تتبع مصدر الصوت.

ندخل سوق النحاسين، دقات المطارق على الصحون والأواني النحاسية تملأ الآفاق، كم كنت أتجنب عبور السوق،

كم كنت أكرهها، تصم الآذان، هي الآن ناعمة طرية عذبة، كأنها دغدغات أصابعي في راحة يدها، أقف، وهي بجانبي، أتأمل رجلًا عجوزًا شائخًا، وهو ينقش الورود والأزاهير والأهلة والأقمار والشموس في صينية كبيرة صفراء تتألق، يدير الصينية بين يديه، كأنه يدير الأفلاك والكواكب والنجوم.

وألتفت، لا أراها، أمضي إلى آخر السوق، أرجع إلى أوله، أروح، أجيء، أظل إلى المساء، بين رواح ومجيء، أدخل كل المحلات، عيناي ينالهما الإعشاء من التماع النحاس الأصفر، دقات النحاسين تسدُّ صمَّامات قلبي، أسأل عنها، أسأل عن جدٍّ كان قد جاء إلى حلب من فاس قبل ألف عام، تتزايد الدقات، تعلو الأصداء، تملأ الفضاء، لا أسمع أي جواب.

*

لا تسألوني عن اسمها، كان اسمها: "ضياء".

*

بعد مئة سنة، أو يزيد، كنت أتجوَّل في سوق الأثريات، لفت نظري صحن نحاسي أصفر عتيق، حملتُه، وإذا فيه نقش صورة لامرأة، تشبهها، كأنها هي، بل هي، تفرست في النقش، في عنق المرأة سلسلة، في نهايتها حروف، تحمل اسم: "ضياء".

في أسفل الصحن، نقش: "نور الدين الفاسي – حلب".

اسمها شمس

أجَّل سفره إلى أمريكا، أفرد لها حجرة خاصة، أحضر لها طبيبًا مختصًّا، ومُشرفا مدرَّبًا، ينتظر يوم ولادتها بشوق وصبر، يتمنَّاها أنثى، سوف يسميها: "شمس"، ولن يسافر إلا بعد أن يفرح بولادتها.

في اليوم الموعود، وُلِدَت، بعد كثير من الصبر والرعاية والقلق والتوتر، جاءت حمراء متألقة، مثل عصير العنب الأحمر، سماها "شمس".

فور ولادتها شبَّت على قوائمها الأربع، جمحت، ركضت بعيدًا عن أمها، دارت عدة دورات، جاءت إليه، تمسَّحَتْ به، ثم ذهبت إلى أمها. طمأنه الطبيب: استكملت نموَّها، أحد عشر شهرًا من الحمل السليم، وهي بصحة جيدة، وبدأت ترضع، يمكنك السفر.

طبيبه الخاص قال له: تأخرت كثيرًا، أنت تعيش بشريان واحد، وعليك أن تسافر.

مرت عشرة أيام، اطمأن، مسح جيدها بيده، قبلها، ثم سافر.

فتح عينيه، أفاق من التخدير، ألقى بنظره من النافذة، سهول خُضْرٌ تمتد أمامه، خيول تمرح، مهرة حمراء تجمح، كان مستلقيًا في السرير، همَّ بالجلوس، لكن الطبيب نبَّهه.

قال له: أحس أني مثل فرس وأريد أن أركض، الطبيب يعرف ولعه بالخيول، ويعرف أنه رزق بمهرة قبل العملية بنحو الشهر، قال له: صدقت، لك اليوم قلب مهرة.

في المطار كان ابنه في انتظاره، أبى إلا أن يقود السيارة بنفسه، أراد أن يذهب إلى المزرعة ليطمئن، ولكن ابنه أصر: عليك الذهاب أوَّلًا إلى الفيلا لتستريح.

كان على تواصل دائم مع ابنه، طوال الأيام التي انقضت، ابنه يطمئنه.

دخل بوابة الفيلا، ومضى عبر ممر طويل في حديقتها، طالعته على الفور المهرة، حمراء متألقة، الشمس المائلة إلى الغروب تنعكس عليها، فتزداد تألُّقًا، منتصبة بقوائمها الرشيقة فوق مصطبة مرمرية بيضاء، بعلو متر ونصف المتر، تلتفت بجيدها الأتلع ناظرة بعينيها نحو الشرق.

أوقف السيارة، وسأل ابنه: ما هذا؟ أجاب الابن: تمثال "شمس"، صنعته تكريمًا لها.

ترجَّل من السيارة، اتَّجه نحو النصب المرمري، طالعته لوحة نحاسية فيها صورتها، وتحتها: "المهرة شمس ٢٤ آذار ٢٠٢٥ – ٢٤ نيسان ٢٠٢٥".

والتفت إلى ابنه، قال له: ٢٤ نيسان هو اليوم الذي أجريت فيه العملية، وقال لي الطبيب: لك قلب مهرة.

ثلاثون يومًا، أو واحد وثلاثون يومًا، عشتها معها بالخيال، أكثر مما عاشت.

هي عندي بالأعوام، لا بالأيام، كأنها افتدتني بقلبها.

توجه الأب نحو النصب، دمعة تترقرق في عينيه، طبع على جدار النصب أسفل قوائمها قبلة.

مشاريع

أتنقل بين عمارات كثيرة متزاحمة متداخلة مرصوصة بعضها لصق بعضها الآخر ما تزال مشاريع لم تكتمل لا أعرف كيف دخلت خلالها أبحث عن مخرج أتجه فيما أتوقعه شمالا نحو الشارع الرئيس ولكن ما ألبث أن أرجع في الاتجاه المعاكس أعمدة وجدران من غير أسقف وأرضيات متباعدة أحيانا علي أن أقفز فوق فجوات وخنادق. وأستيقظ.

أسأل جدتي، أسأل إمام الجامع، أسأل الذكاء الاصطناعي.

أجدني وقد تأخرت عن الوظيفة، أهبط على الدرج، أقفز فوقه، بل أُحَلِّق، مثل طائر، في كلّ مرة أرى هذا في الحلم، ولكن اليوم هو حقيقة، ها أنا ذا أقفز فوق الدرجات العشر، وأنعطف ثم أقفز فوق عشر درجات أخرى، ثم أبدأ بالتحليق والتحويم فوق الأدراج، الشمس ملأت أسطح الأبنية والجدران، أشرقت على المدينة كلها، لا أكاد أصدق، كلُّ الإشارات كانت تؤكد: الجو غائم، بل غائم جدًّا، ولن تشرق الشمس، ها هي ذي الشمس تشرق، لا أصدق، قبل أن أخرج سألت أمي: ما هذا الضوء الذي يغمر الكون؟ قالت: هي الشمس، سألتها: كيف أشرقت؟ قالت لي: الشمس تشرق كل يوم، هذه سُنَّةُ الكون، ولكن الغيوم تحجبها، ودائمًا وراء الغيم شمس، حتى في الليل هناك في أفق بعيد شمس، لكنك أنت عجزتَ، وخرفتَ، حتى نسيتَ، ضحكتُ من غبائي، بل بكيتُ من يأسي، صدَّقْتُ كلَّ التنبؤات، أمام باب العمارة أدخل في سيارة، وجدت باب السيارة مفتوحًا، كأنها تنتظرني، فدخلت، لم أتنبّه إلى أنها سيارة خاصة، وليست سيارة أجرة، قال لي الرجل الذي وراء المقود: أهلا بك، سأوصلك إلى الهيئة، فقلت بل إلى المديرية، قال: أصبح اسمها هيئة، هي باسمكم أنتم، جميع العاملين فيها، وليس باسم المدير وحده، كأني

أستيقظ مِنْ وَهْمٍ، لماذا كان اسمها مديرية؟ لماذا تنسب إلى المدير؟ فيقال مديرية، حتى الاسم تغيَّر، أدخل مبنى المديرية، بل مبنى الهيئة، لا حارس عند الباب، وجدتها عالية، كيف ارتفعت فأصبحت في عشرين طابقًا، كأنني في قصر، لا أعرف كيف وجدتني في قاعة كبيرة، والموظفون يملؤونها واقفين وقاعدين على مقاعد جديدة فاخرة، وأمامهم منصة، يقعد وراءها سبعة رجال، لم أعرفهم، وجوه جديدة، ليس المدير، ولا معاونيه، ولا نوابه، الرجل الذي يتوسطهم يتكلم، القاعة مشرقة، لا سقف لها، مفتوحة على السماء، على الشمس، الشمس تضيء وجوه الرجال السبعة، الشمس تغمرنا دفئًا وضوءًا، ثمة إشراق، وتألُّق، لم أعهده من قبل، أميل على زميل بجواري، يفاجئني ارتداؤه ثوبًا جديدًا، كل الموظفين والموظفات قد ارتدوا ثيابًا جديدة، الرجل الذي في الوسط ينطق، كأني أسمعه يقول: ما هي طلباتكم؟ نحن هنا لخدمتكم، لنجدِّد هذا البناء، فهو حقيقة متهدّم، أسمع أحدهم يتكلم: نافذة مكتبي مغلقة بالحجر، خوفًا من رصاصة طائشة، موظّفة أعرفها يرنُّ صوتها عاليًا كأنه نشيد وطني: المنضدة الحديدية في مكتبي صدئة، طوال عمري كنت أعمل وراءها، يفاجئني صوتها، أعرفها طوال عهدي بها صامتة، لم أسمع صوتها من قبل، عامل يرفع بيده عاليًا جهاز هاتف، ويعلن: طوال خمسين سنة، وأنا أتعامل مع هذا الجهاز،

وصوتي لا يصل فيه إلى أحد، ولا يأتيني منه غير صوت المدير، يصدر الأوامر، بصوت أجش خشن، أريد جهازًا آخر، يدخل عامل ظهره متقوّسٌ تحت ثِقْلِ بابٍ حديدي، يلقيه أمام الرجال، فيدوي صوته عاليًا، وسرعان ما ينفرط الحديد، ويتآكل، ويذوب، الرجل يشدُّ ظهره، يستقيم، يتكلّم: طوال خمسين عامًا وأنا أحمل هذا الباب على ظهري، آن لي أن أستريح، ابتسامة هادئة مثل فراشة بيضاء تعلو وجه الرجل الذي في الوسط، يعلّق: لا أبواب بعد اليوم، سنفتح كل النوافذ، سنحولها إلى شرفات عريضة، تطل على آفاق بعيدة، أراه يشير إليَّ أنا، كأنه يقول لي: ما طلباتُك، أنت هناك، أيها الكهل العجوز؟ يعلو صوتي، أسمعه يملأ الكون، وإن لم أتكلم: طوال خمسين سنة، مثل الآخرين، وأنا أعمل في هذا البناء المتهدم، أحبُّ حورية، ولكن المدير كان ينقلها من مكتب إلى مكتب، وها هي ذي هناك قد شاخت مثلي، ابيضَّ شعرها، هرمتُ أنا، وهرِمتْ هي مثلي، هرمنا معًا، وكان المدير ما يزال حتى يوم أمس ينافسني فيها، حورية هي وحدها رجائي الأخير، الرجل الذي في الوسط يشير نحوي بيده، فإذا أنا في الأعالي، معلق بين السماء والأرض، البحر يمتد أمامي، والشمس تنثر فوقه شعاعها الذهبي، فيتألق الموج كأنه مرج أخضر، ألتفت فأرى حورية إلى جانبي، تلتفت إلي، كأنها تسألني: ما هذا! كيف رجعتَ شابًّا؟

وأستحيي من سؤالها، فقد رأيتها أكثر مني شبابًا، أعانق حورية، أطبع قبلة على جبينها.

ما أزال أذكر ذلك اليوم، كنت في الحادية عشرة، وأنا في الصف الخامس الابتدائي، كنا في شهر نيسان، وهو معروف بأمطاره التي تهطل فجأة غزيرة، ثم ما تلبث أن تنقطع، في ذلك اليوم، قبيل الانصراف، غامت الدنيا، وعمت العتمة، وتنفجر ومضات البرق، تملأ جدران غرفة الصف أضواء مرعبة، تعقبها دمدمات وقعقعات تهز الجدران، ويرن جرس الانصراف، ونتدافع متزاحمين راكضين تحت المطر نحو باب المدرسة، والسيول تتدافع أنهرا في الشارع، أغصان أشجار متكسرة على الرصيف، بعضها تجرفه السيول، الريح تعصف، عجلات السيارات تغطس في السيول، وهي تسير ببطء، حركة المساحات على زجاج السيارات تلفت نظري، لا تستطيع إزاحة المطر عن الزجاج ، السيارات تغوص في بحر، أسير على مهلي، مستمتعًا بكل شيء، المطر والسيارات والناس المتراكضين تحت المطر، أحس بالبهجة، لا أعرف لماذا؟

شعري يقطر ماء، أحتاج فقط إلى قطعة صابون كي أستحم، أدخل الزقاق كأني أدخل في نهر، حذائي يمتلئ بالماء، زقاق حينا ينحدر من أعلى، أصل إلى باب الدار، أقرع الباب، أقرع، مرتين، ثلاث مرات، خمس مرات، أدق

بقوة، ما من صوت، أقعد على الدرجة أمام الباب، قدماي تغوصان في السيل الجاري، حذائي أصبح ثقيلا، الحقيبة المدرسية في ظهري أصبحت أثقل، الكتب والدفاتر تبللت، بل غرقت، أسمع قعقعات الماء ينصب من المزراب على أرض الدار، القبو في الدار من غير شك امتلأ بالسيل، غرقت كل المؤونة، بل طافت، الخشب في سقف المطبخ منخور، دائمًا كانت أمي تخشى انهياره، أتمنى لو أنه انهار، أشعر بالغبطة، الأرض كلها تغرق، لا مدرسة، لا كتب، لا واجبات، لا بيوت ولا حارات، يغرق الناس كلهم، تبلع الأرض الماء، أبقى أنا وحدي، حتما ستبقى على وجه الأرض بنت واحدة، أنا وهي نبدأ بناء عالم جديد.

وتظهر أمي وهي تهرول قادمة من أول الزقاق، تركض نحوي مرتبكة، وهي تقول: "صرفوكم من المدرسة من أجل المطر قبل وقت الانصراف، كان الواجب بقاؤكم حتى ينقطع المطر، أنا كنت عند الجارة، من خمس دقائق، حتى القهوة ما شربتها".

أحدث اليوم زوجتي عن ذلك اليوم، وقد مر عليه سبعون عامًا، تقول لي: "أنا تلك هي البنت الوحيدة التي بقيت على وجه الأرض".

موسيقى

العجوز يحضن عوده، كأنه حفيده، يحنو عليه، يلصق صدره به، أصابعه النحيلة الراعشة تداعب الأوتار، كأنه يمسح شعر حفيده، والنقرات تتابع، كأنها قطرات دمع تنساب من عينيه الحمراوين، ومن جفونه المثقلة بالنعاس والمرض والحزن، كأنه نائم، هو غارق في النغم.

والخدم يتنقلون بين الموائد، يحملون الأطباق والصحون والكؤوس من فوق الرؤوس بخفة ورشاقة، الأسنان تقضقض وهي تقضم، والأفكاك تجعجع في الآذان وهي تمضغ، والكؤوس تقرع، والملاعق في الصحون تقعقع، هذا ينادي النادل، وذاك يصيح به، وثالث يغمغم، ورابع يقهقه، صخب ولغط وضجيج وقعقعة تصنع موسيقى من نوع آخر.

الفضاء مشبع بدخان السجائر والنراجيل.

رأس العجوز يسقط على صدره، أصابعه تتيبَّس، وهو ما يزال يحتضن العود، قطرات النغم تتقطع.

موسيقا الطعام تستمر، ولا شيء يتوقف.

قبل أن يفتح الباب....

لا أعرف كيف وجدتها أمامي فجأة، من أيِّ سماء هبطت؟ لا أعرف، نحن وحدنا معًا في الغرفة، والباب مغلق، أعانقها، أضمها إليَّ، تستسلم لي، كأني أعانق النور، كأني أعانق الهواء، انسياب وانثيال وانديا ح، نعومة ولين ولطف، أهم بتقبيلها.

ويُفتح الباب، يطلُّ وجه جدتي، ترميني بنظرة، تحرقني.

غابت، كيف غابت، لا أعرف؟ وجه جدتي لم يغب.

أفتح عيني، أنهض، أنزل من السرير.

نظرة جدَّتي ما تزال تلاحقني.

الصورة...

تخرج الممرضة بهدوء من غرفة العناية المشدَّدة، بلطف مبالغ فيه، تقول لهم:

–بذل الأطباء كلَّ جهدِهم، لكنَّ القلب توقف، هذا هو أجله المحتوم.

حاولت ابنته أن تذرف بعض الدموع، أبناؤه الثلاثة أطرقوا برؤوسهم، صامتين.

الممرضة تسأل:

–هل ترغبون في إلقاء نظرة؟

لا تتلقّى منهم أي إشارة تدل على أي رغبة.

تنظر إلى ساعة يدها، ثم تتكلَّم:

–الوقت متأخر، الساعة الآن حوالى التاسعة، نحن سنقوم بالواجب، سننقله إلى الثلاجة، غدًا عند الساعة الثانية عشرة ظهرًا، يمكن أن تأتوا لتأخذوا والدكم، سنقوم في المستشفى بكل الإجراءات الأصولية، من غسل، وتكفين، تستلمونه مسجَّى في تابوت، مع شهادة وفاة قانونية، وتحملونه إلى المقبرة مباشرة.

تمسح البنت دمعتها، يرفع الأبناء رؤوسهم، بسمة خفيفة ترتسم على الشفاه، تعبّر عن الشكر والامتنان، وتدل على نزول أعباء كبيرة عن أكتافهم.

وتضيف الممرضة:

–المرحوم كان قد أودع في المستشفى سلفة كبيرة، تكفي لكل الإجراءات.

ويندفع الأبناء الثلاثة مع البنت خارج المستشفى كأنهم يندفعون خارج مغارة علي بابا نحو مهمة رسموها لأنفسهم بعناية.

ترجع الممرضة إلى غرفة العناية المشدَّدة، وهي تحس بالطمأنينة والارتياح، لعلَّ هذه هي المرة الأولى التي لا تُفاجأ فيها بنُوَاحِ أهل المُتَوَفَّى أو بكائهم أو غضبهم أو محاولتهم اقتحام غرفة العناية المشددة.

يفاجئها أحد الأطباء:

–تسرَّعْتِ، يا وفاء، في الإعلان عن وفاة المريض، عاد النبض إلى قلبه، وهو في تحسُّن مفاجئ، أسرعي لإخبار أبنائه، والدهم بخير.

تخرج، ترجع، لا أحد خارج غرفة العناية المشددة.

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، يسترد الرجل ما تبقى من السلفة التي دفعها، يغادر المشفى ماشيًا على قدميه.

يأخذ سيارة أجرة إلى الفيلا.

يستل مفتاح الفيلا مِنْ سترته، لا ضرورة لاستعماله، الباب مفتوح.

على يمين الباب، فوق الأرض اللوحة المرمرية التي تحمل اسمه، واقعة، لم تتحطم، كأن أحدًا خلعها من موضعها، ثم وضعها على الأرض بهدوء.

يميل نحوها، يحملها، يثبتها في موضعها من الجدار، قرب الباب، ويدخل الفيلا.

ستائر البهو، السجاجيد، الثريا الفخمة، المقاعد الكبيرة، منضدة الرخام التي تتوسط البهو، المزهريات النادرة، الثلاجة في المطبخ، المجمِّدة، الموقد، الخزائن، القدور، الصحون، الملاعق، منضدة الطعام الطويلة، الكراسي، المزهريات الثمينة، السرير في غرفة النوم، الفرش، الوسائد، الأغطية، الخزائن، المرايا، الستائر، زجاجات العطور.

لا شيء، لا شيء، لا تحيط به غير الجدران.

يرجع إلى البهو، يلتفت، صورته ما تزل مثبتة على الجدار في مواجهة الباب.

أولادي لم ينسوها، لماذا يحملونها؟ ليسوا بحاجة إليها.

طفلها الأشقر

كم أحببته، كم دلَّلْتُه، كم من الهدايا والألعاب والأطعمة والورود والأزاهير حملت له، التقيتها والتقيته في المقبرة، حزينين مكتئبين، في السواد يتشحان، يوم دفنت صديقي، بكيت معهما، وأبكيتهما، فسيلتان من حب وحزن في قلبي زرعتهما، زيارات ولقاءات ورحلات وأسفار معًا تجمعنا، هي وهو وأنا، على كتفي أحمله، أطعمه من يدي، ومن يدها تطعمني، ونتساقى الحب، الحزن طويناه، خلعنا السواد، وازدهت الألوان، على الشاطئ تراكضنا، بين الرمل والبحر مشينا، في اليم انغمرنا، وعلى الرمل تقلبنا، الشمس معا أحرقت جلدنا، أشتاق إليه، وإليها، وأزوره، أحمل إليه الهدايا، وضمنا نحن الثلاثة بيت واحد، تحت سقف واحد نومنا، إلى مائدة واحدة طعامنا، في شرفة واحدة جلستنا، هو تارة بقربي، هو تارة بقربها، أشقر ناعم لطيف كأنه الكناري، يتثنى مثل غصن رطيب، يتهادى ناعمًا على جبينه شعره الأشقر، كم أحببته، أرى فيه وجه صديقي، أرى فيه أمه، لكنني بدأت أراها، فجأة، إلى صدرها بعد عودته من المدرسة تضمه، كأنني لم أرها تفعل ذلك من قبل، يلتصق بها، هنا موضعي لا موضعه، بيدها تطعمه، يدها لي وحدي، ليست له، في الفراش إليها تشده، يده على صدرها، رجله بين

رجليها، غطاء واحد لهما، يوقظها، توقظه، يقبّلها، تقبّله، يغلي دمي، ماذا أفعل؟

في التلفاز، وفي برنامج علمي، رأيت الأسد، ومن حوله لبواته، وهو يقتل أشباله.

تلك الرائحة

تلك الرائحة تحاصره، حيثما حل أو ارتحل، في البيت، في المكتب، في الحافلات، في الشارع، في المحلات والمخازن، كره المدينة، كره العمل، كره البيت، كره البشر، رائحة نتنة كريهة لا تشبهها أي رائحة.

اقتحم محلا لبيع العطور، طلب أقوى عطر نفاذ، دلق الزجاجة كلها على رأسه، على صدره، على يديه، على قدميه، دلق زجاجة أخرى على أرض المحل، زجاجة ثالثة دلقها خارج المحل.

الرائحة ما تزال تتفجر وترمي نتنها مثل بركان.

وهو لا يعرف حقيقة مصدرها، هل هي نابعة من الداخل؟ أم قادمة من الخارج؟

جارها العجوز

كل يوم تسكب له صحنا مما تطبخ، كل يوم ترسل إليه طبقا مما يأتي به زوجها من فاكهة، كل يوم ترسل أولادها إلى شقته ليتسلوا عنده، ويلعبوا في حديقة شقته المقابلة لشقتها، وليمنحوه بعض الأنس والتسلية.

أقنعت زوجها أن يدعوه بين ليلة وأخرى للسهر معهم، أو تناول الطعام على مائدتهم، أو الخروج معهم في عطلة نهاية الأسبوع إلى المتنزه.

قرع عليها الباب، ففوجئت به، يتلعثم، ولا يكاد يستطيع الكلام، يمسك يدها، يشير إلى باب شقته المفتوح، لا تعرف هل يريد اقتحام شقتها والدخول عليها، أو شدها إلى شقته والنيل منها.

إلى جانبها سيخ حديدي، وجدت نفسها تحمله، تضرب به رأسه.

والتفتت إلى باب شقته، وإذا بأفعى تخرج منسلة إلى الخارج.

أما بعد...

كم أتمنى لو تستيقظ صباح يوم عطلة، نشرب فنجان قهوة في مقصف، أو نتناول طعام الإفطار في مطعم، بل أتمنى لو آخذ يومًا من عملي إجازة، لنمضيه معًا، نطوف فيه أرجاء المدينة، نزور الحدائق والمتنزهات، لكنها دائمًا تعتذر، وتقول: لا أستطيع الاستيقاظ مبكِّرًا.

كنا نلتقي عصرًا، أو مساء، أو ليلًا، وتأتيني، وكأنها قد استيقظت من نومها للتو، كنت أقول لها: ما أجمل عينيك! كأنهما جناحا نورس، كأنها لوزتان، كأنهما فستقتان، كأنهما سحبتان من قوس على كمان، تسحرني عيناها، ولا سيما حين تضحك، يكاد الجفنان ينطبقان، وتلتقي الرموش الطويلة، ما أحلاهما.

اليوم، أستيقظ، وهي إلى جواري في الفراش، أتركها، وأمضي إلى المطبخ، أعدّ فنجان قهوتي، أكرعه وحدي، وأمضي إلى عملي، لا جدوى من محاولة إيقاظها.

يا إلهي، كم عيناها متورِّمتان.

رسائلها

منذ خمسمئة وخمسين عامًا، وهي ترسل إليَّ رسائلها.

أرسلتها مع الحمام الزاجل، مع جارية لها، مع أخيها الصغير، بالبريد العادي، بالبريد المسجل.

أرسلتها على ورق أزرق بلون السماء، على ورق وردي، على ورق بنفسجي، على ورق أحمر كالدم.

قصصًا، قصائد، خواطر.

مبللة بالدموع، عابقة بأنفاسها، طياتها خصلات صغيرة من شعرها الأشقر، ندية بقطرات من دمها.

خمسمئة وخمسين عامًا وعشرة أيام، وهي ترسل إليَّ كل يوم، كل ساعة رسائلها.

اليوم غابت رسائلها.

يا إلهي، كم أكره جدي! لا أعرف لماذا؟

رجعت من السوق مع أبي، وقد اشترى لي قطة منزلية صغيرة، بيضاء، فروها أبيض ناعم، ولما دخلت عليه في غرفته، وأنا أحضنها فرحًا بها، به أود عرضها عليه، فاجأني بصوت غاضب:

–هيا، اخرج من غرفتي أنت وقطتك، أَعِدْها إلى الشارع.

قلت له متوسلا:

–أرجوك جدي، هي قطة منزلية، اشتراها لي أبي.

ازداد غضبه، وأشار بعصاه يريد طردي من غرفته.

لا أرى جدي إلا مسترخيا في مقعد واسع عريض، له مسند عال، مُسندا رأسه إلى وراء، كأنه قاعد في كرسي حلاق، وأمامه مسند للقدمين، يمدد عليه رجليه، ويده اليمنى على عصا بنية اللون لامعة، مقبضها مفضض، لا تكاد تغادر يده، كأنها جزء من يده، يشير بها دائما مؤنبا أو موبخا أو آمرا أو طاردا، كأنها سبابته.

لحيته بيضاء طويلة، وشارباه أبيضان كثان، وحاجباه أبيضان الشعر فيهما طويل وكثيف يكاد يغطي نظارته الطبية، ومن ورائها تبدو عيناه واسعتين جدا، كأنه يحملق

فيك، ويزيد الإطار الأسود للنظارة من اتساع عينيه، ولا تكاد تعرف لونهما، فقد ابيضتا، أو كادتا.

وإلى جانبه فنجان قهوة كبير، البن مستقر في قعره، لا يريد غسله ولا تبديله.

على الجدار، وراء رأسه، ستارة زرقاء سميكة، تنفتح بشقيها الاثنين عن صورة كبيرة، يزعم أنها صورته، وهو واقف على طوله، يؤكد لي أنها صورته في شبابه، وأنا لا أكاد أصدق، فهي لا تشبهه في شيء، لا أعرف من يشبه الرجل في الصورة من الزعماء أو الملوك، كأنها ليست صورته، لا ينقصها سوى علم دولة ما، لتدل على أنه ملكها أو رئيسها، شارباه في الصورة فقط، يشبهان شاربيه، في كثافتهما، ولكن مع اختلاف اللون.

أدخل عليه، أسأله أن يعيرني كتابا، فيقول:

–ليس عندي كتاب فيه صور.

– أنا في الصف الخامس، وأجيد القراءة، لا أريد كتاب صور.

–مازلت صغيرا، ليس عندي كتاب يناسب عمرك.

وأخرج مكسوفا.

على المنضدة إلى جانبه رقعة شطرنج من خشب فاخر، وعليها بيادق من عاج أبيض وأسود، أقول له:

–أعرني رقعة الشطرنج.

فيطردني.

دخلت عليه يوما حاملا لوحة فنية، فيها حروف ألف باء بخط رائع، يغطيها لوح زجاجي، أعرضها عليه، وأنا أقول له:

–جدي، بارك لي، فازت هذه اللوحة بالدرجة الأولى، بين أربعين لوحة.

فيسألني مدهوشا:

–من الخطاط الذي أجاد في رسم هذه الحروف؟

فأقول له:

–ليست بخط خطاط.

–ومن أين جئت بها؟

– عندك هنا في المكتبة كتاب ضخم، من ثمانية وعشرين مجلدا، الصفحة الأولى من كل مجلد فيها حرف من حروف الأبجدية.

– وهل صورتها عنه؟

–لا، بل، قصصتها من المجلدات.

تضيء إشارة المرور خضراء للمشاة، تتوقف السيارات، والحافلات، والدراجات، يندفع العابرون يقطعون الشارع مسرعين من رصيف إلى رصيف والعرق يتصبب منهم تحت شمس تموز اللاهبة.

أندفع معهم.

في منتصف الشارع، بين الإشارتين، نلتقي وجها لوجه، يستوقفني، يشدني من يدي، يرجعني إلى الرصيف الذي كنت عليه.

يأخذ في عتابي ولومي، يوم كذا... ويوم كذا ... ويوم كذا ...ومن شهرين في يوم كذا...وهذا الشهر في يوم كذا ...وفي يوم كذا...

أقول له:

–أرجوك، تعال إلى الظل، نحن هنا تحت شمس تموز.

–بل سنبقى هنا.

ويذكر أشياء وأشياء مما هي سخافات عابرة، يذكر كل التفاصيل بالأيام والأرقام، وقد أحصاها، وعدَّها عدًّا، ويضيف ...

–هذه حقائق، لا يمكن أن تنكرها، هي حارقة كعين هذه الشمس، انظر، هي مثل هذه الشمس، شمس تموز، حارقة، لا يمكنك الاعتذار؟ ما يزال عندي مثلها كثير، قائمة طويلة مسجلة في دفتر، سألتقيك في يوم آخر، ليس معي الآن الدفتر، ولا تعتذر، فات وقت الاعتذار، لا تقل هي سخافات عابرة، يقع في مثلها كل الناس، هي بالنسبة إليَّ كل شيء، هي قضية مبدأ، وأنا لا أغفر، ولا أسامح، هي مثل الأهرامات.

أعلق ساخرًا:

–قُلْ هي مثل جبال هيملايا، هذه أعلى وأضخم وأكبر.

يردُّ بجِدّ:

–جبال هملايا من صنع الرب، وهي نقية، تعلوها الثلوج الطاهرة، لا يمكن تشبيه أخطاء البشر بها، الأهرامات من صنع البشر، هي حجارة سوداء، تخفي داخلها الأسرار والبلايا، هي من صنع فراعنة جبابرة أهلكهم الله وسيهلك أمثالهم.

يولني ظهره، ويمشي.

أحاول عبور الشارع، ولكن تأتيني من ورائي أصوات وتعليقات:

–يالطيف، الرجل وقع، اطلبوا الإسعاف، لا شك هي ضربة شمس.

ما أزال أبحث عنها ...

أخرج مُولِيًا ظهري للقرية كلِّها، الحارات والأزقة الترابية والبيوت الطينية والمسجد الصغير والمسجد الكبير والسوق والرُّوْمَة، والأهل والجيران والأقارب كلِّهم جميعًا، والتلةِ التي تنام القرية في ظلها، مثلَ غراب أسود كبير يجثُم فوقَها، كم أكره هذا التل، مرةً تعثرتُ في سفحه، وتدحرجتُ، وجاء رأسي على حَجَر، وشُجَّ.

أخرجُ، تاركًا وحيدة وحدَها تغنِّي لزهرة، وتهزّ سريرها، السرير الذي صنعته مضطرًّا مِن أغصان زيتون جافة.

أعبر ساحة القرية، أسير في ظل المسجد، متَّقِيًا الشمس، أودُّ لو يمتدُّ ظلُّه أكثر.

قبل وصولي إلى الرَّكِيَّة، سِرْبٌ مِن الصبايا يتقدَّمْنَ في الطريق نحوي حاملاتٍ الجرارَ على أكتافهن.

تهمُّ إحداهن بإنزال الجرة لتسقيني، وهي تسأل بصوت صباحي فيه بُحَّةٌ عذبة:

- عطشان خَيِّي؟

أتجاوزها ماضيًا نحو الركية.

أسمع أصواتَ الصبايا يغنين ويزغردن، أراهن يتحلَّقْنَ حولَ فُوَّهَةِ الرَّكِيَّة الكبيرة الواسعة.

صَبِيَّةٌ تسحب الدلو مِن أسفل الركية بحبل جلدي، تسحب، وتسحب، الركية عميقة، تصل الدلوُ إلى أعلى فتستقبلها بزغرودة، ثم تصبُّها في الجرة، وهي تُغَنّي، تساعدها صديقتها، ترفع الجرة، تضعها على كتفها.

أحس بالرطوبة والندواة تملأ الفضاء، كأنها تنبعث من الفوهة الواسعة للركية، تمازجها روائح الأنوثة متموجة مع أصداء الأغنيات المختلطة والزغاريد مع رشاش الماء، وهو ينصبُّ من أطراف الدلاء.

أمضي، أبحث عنها.

أغنيات الحاصدات تصلني على وسوسات المناجل وهي تقطع السنابل، لا أعرف كيف لا يذوب حديد المناجل من غناء الأصوات العذبة، كأنهن يناديننني بأغنياتهن الساحرة، وهُنَّ متناثراتٌ في الحقل الذهبي الأصفر بثيابهن الزُّرق والحمر والخضر كالزهرات، تمرّ بي إحداهن حاملةً على كتفها حزمة من أصل السنابل، كأنها تحمل الشمس على كتفها، محمرَّة الخدين، وحبات عرق كاللؤلؤ تزيّن جبينها، عيناها السوداوان تناديان بشوق عطشًا لشربة ماء، وهي تلوك اللبان بفم لاهب مشتعل، والشفتان تردّدان بقية أغنية خجولة، أعرف نغماتها الريفية، ولكن لا أتذكَّر كلماتها.

أمضي، أبحث عنها.

في الدرب الترابي الضيق تقابلني صَبِيَّةٌ تحمل قُفَّة تين على كتفها، وجه أبيض مورَّد، وعينان زرقاوان، وأنف ناعم، وصدر ناهد، تدنو مني أن أدنو منها، نلتقي عند منعطفِ الدرب الترابي، تقف قي ظل شجرة، بيد ناعمة تنزل القفة عن كتفها، وقد انحسر ردن الثوب عن زند أبيض كاللؤلؤ:

- تفضل يا عم.

الكرم ينحدر بنعومة نحو واد ثم يصعد هادئًا، أشجار التين تنساب فوقه منحدرة في طواعية مع انحداره، ثم تصعد بهدوء في صعوده، في أرتال، مثل ثوب مخطط بالأخضر، يلتف على خصر ناعم، تتخلَّل أشجارَ التين دوالي العنب، تمتد منبسطة على الأرض، وعناقيدُ العنب الأبيض تتدلَّى منها، وصبايا يرفعن الرؤوس في قامات ممشوقة، ويمددن الأيدي إلى ثمار التين، الأصابع الناعمة تقطف التين وتُودِعه في القفة، كأنها تداعب وتر عود.

وصبايا ينحنين على دوالي العنب، إحداهن ترفع عنقود عنب بيد ناعمة إلى أعلى، وقد أمالت رأسها إلى وراء تحت العنقود، وراحت تلتقط بفمها حبة من العنقود إثر حبة، كأنها تقطف نجمة من السماء بعد نجمة، وقد بان عنقُها الأبيض الشفاف كأنه عنقود عنب آخر.

أمضي، أبحث عنها.

يجتاحني برد غير متوقع، يرتفع أمامي جبل من ثلج، كأنه جدار، ثلج ينهمر، دِبَبٌ بيض ضخمة تقترب مني فوق جليد زَلِقٍ، تُحاصرني، عيونُها الصغيرة تلتمع.

أين قريتنا؟ نحن في قريتنا لا نعرف الثلج، ولا الدببة، ولا الجليد.

أقفل عائدًا.

يلُوحُ لي مِن بعيد التلُّ، مثلَ نسرٍ أبيض يظلِّل قريتَنا، يحميها، يمنحها دفء الشتاء وبرد الصيف.

كم كنتُ أحبّه، أصعد فيه، ألعب مع الأتراب، نحفر، بحثًا عن كنز مدفون، ولا نجد شيئًا، يعفِّرنا التراب، نتراشق به، نهبط متراكضين، لنغطس في الرُّوْمَةِ الطينية التي تملأ ساحة القرية، وهي مِن بقايا مطر الشتاء، نستحم فيها، ونسبح.

البيوت كأنها عشيرتي وقبيلتي، وقد اجتمعت في كتف التل، تبتهج وتحتفل، كأنها في عرس أو في استقبال حاجٍّ راجع من مكة المكرمة.

أهل القرية كلهم أهلي وصحبي وخلاني.

في بداية السوق أرى الزحام، هو يوم البازار، أختلِطُ بالناس، أدخل في الزحام، أوان نحاسية، ودلاء من جلد، وأوعية بلاستيكية، وأقمشة، وألبسة، وأحذية للكبار والصغار، ودراجات، وسجاجيد لُبَّاد، وحُصُر، وحَلْوَيَات، وسجائر وتبغ

ونراجيل، كأن المدينة حملتْ كل ما في أسواقها من بضائع لتصُبَّهُ في بازار القرية.

صبايا حسناوات يقفن أمام عربة فيها عقودٌ وأساورُ من خرز ملون، وعقودٌ مما يلمع مشابها الفضة والذهب، وخواتمُ، وأقراطٌ، وأمشاطٌ من ألوان مختلفة تبعث البهجة، ومرايا كبيرةٌ وصغيرةٌ مدورة، وزجاجاتُ عطورٍ يعبق الجو من شذاها الفاغم، وبخورٌ يصَّاعد، وأدواتُ زينة، وأحمرُ شفاه، والصبايا متجمِّعاتٌ حول العربة، يُمازِحْنَ البائع العجوز، وهو يضحك مفترًّا عن فمٍ تساقطت أسنانه، ويتندَّرْنَ فيما بينهن.

إحداهن تُري صديقتَها سُوارًا من خَرَزٍ مُلَوَّن وضَعَتْه في مِعْصَمها الأبيضِ الناعم، أكاد أخدشه بنظراتي، وتسأل صديقتَها رأيَها، ليتَها تسألني أنا، وأخرى تُمسك بمرآةٍ صغيرةٍ مدورة، وتنظر في الأحمر الفاقع، وقد بدأت تصبغ به شفتين سمراوين مكتنزتين.

ما أزال أبحث عنها.

أغادر السوق، أدخل في أزقة ترابية ضيقة متعرِّجة، أمرُّ بين أسوارٍ غير عالية للمنازل الطينية، القِباب تعلو الحُجُرات، كم اشتقتُ إلى الرطوبة تحت تلك القباب، كأني غادرتها مِنْ ألف عام، ظل التل الترابي يمتد فوق داري مثل جناح يمامة بُنِّيَّة.

أشم رائحة الخبزِ والخشبِ المشتعل في التنُّور، أدلف من الباب الخشبي الصغير المفتوح دائمًا مثل باقي أبواب القرية التي لا تغلق.

أراها تقف أمام التنور محمرَّة الوجه، ساعداها يشتعلان كالشمس من الوهج، تمدّ يدها داخل التنور، تتناول رغيفًا أحمرَ مورَّدًا مثل وجهها، تناولني إياه، وبصوتها الذي لا يغادر داخلي، تهمس:

- تأخرت يا بَكْر، كيف تترك وحيدة وحدها؟

تسرع إلى السرير، السرير الذي صنعتُه سعيدًا أنا بيديَّ الاثنتين من أغصان الزيتون الطرية، وهو غيرُ بعيد عنها، على المصطَبة، في فِناء الدار، تحتَ جدار يظلِّلُه، تهزُّ السرير بيمينها، وتلتفتُ نحوي سائلة ببسمة يسيل منها الحنان:

- أما اشتقْتَ إلى زهرة؟

أميل على زهرة، أودُّ تقبيلَها، أُشْفِقُ على خدها الناعم مِنْ شاربَيَّ الكثَّيْنِ، خدٌّ مثل ثمرة دُرَّاق حمراء لم تُقْطَفْ مِن أمِّها.

أناول وحيدة مرآة صغيرة مدورة، وأمضي.

ما أزال، أبحث عنها...

أُصِرُّ على الخروج إلى الشرفة، حاملا فنجان قهوتي، في حين تظل زوجتي في غرفة الجلوس، تحتسي قهوتها، محتجة بأن الجو بارد، فنحن في أوائل كانون الأول.

وأرجع إلى الداخل، وفنجان القهوة يتقلقل في يدي، والقهوة تتراشق في الطبق الصغير المدور.

–لماذا رجعت؟

–تعالي انظري، سيارة دفن الموتى أمام العمارة المقابلة.

–لعلها جارتنا العجوز أم صبحي.

ويعلو النداء عبر مكبر الصوت

الفاتحة إلى روح الشاب صبحي.

قبل أسبوع توفي ابن عمي خالد، وقبل توفي صديقي مهند، لا يكاد يمر يوم أو يومان إلا كتبت في الواتس رسالة تعزية، او ذهبت للمشاركة في مجلس عزاء، الأقارب والأصدقاء يرحلون تباعا، حتى يكاد لا يبقى أحد منهم.

شجرة تعرى، أوراقها تتساقط ورقة بعد ورقة.

يرحمنا الله، هذه هي الدنيا، الموت هو قانون الحياة.

إنا لله وإنا إليه راجعون، كل نفس ذائقة الموت، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله، كتابا مؤجلا.

أيقنت أن الموت حق، وأننا جميعا راحلون، ولن تدوم الحياة لأحد، وما دام الموت عودة إلى الله، والدخول في رحمته، فما أجمل الموت، وما أحلاه، هو خلاص من هذه الدنيا المتعبة، وراحة من عنائها ومشاقتها.

أهلا وسهلا بالموت.

اقتنعت بذلك، وصدقت وآمنت.

بل جلست إلى الحاسوب أكتب وصيتي وأنا أضحك، وزوجتي إلى جانبي وعيناها تدمعان، عدلت في الوصية، طبعتها، أخذت في قراءتها على زوجتي، وأنا أضحك، وأقهقه، وهي تذرف الدموع.

وأنهض في الليل، أحاول الهبوط من السرير، فيميد بي السرير، بل تميد بي الأرض، والجدران تتراجع، ولا أعرف أين هو الباب ولا أين هي النافذة، ويسقط رأسي على الفراش، أنادي زوجتي، وتنهض.

–هات حبة الضغط.

وتناولني حبة الضغط.

–هات حبة الكولسترول، حبة السكر.

وتهم بالمضي إلى المطبخ

–سأصنع لك كأس نعنع

–لا، لا تذهبي، لا تتركيني.

وأهم بالنهوض، سأذهب إلى المشفى، سأقود السيارة بنفسي، لكن الأرض تدور بي، وأسقط فوق السرير.

–اتصلي بأي طبيب، اطلبي سيارة إسعاف، أيقظي جاري ليأخذني بسيارته إلى المشفى، اتصلي بأولادي، ليأتوا فورا، ليلحقوا بي في المستشفى.

وتحاول زوجتي تهدئتي، وكيف توقظ الناس والساعة تجاوزت الثانية.

–لا توقظيهم، اتصلي بأي طبيب، اسألي عن الطبيب المناوب، لا تتصلي بأحد، سأذهب إلى المشفى بنفسي، لن أموت.

صلة قرابة بعيدة

لا أعرف كيف استطاع الصعود إلى الطابق السابع، والمصعد متعطل، ولماذا هذه المشقة كلها؟ ولماذا هذا العناء؟ أليس من الأجدى لو أنه قعد في بيته ولم يغادره؟ أما كان لعقد القران أن يتم لولا حضوره؟ أما كان للحفل أن يكتمل في غيابه؟ وما درجة قرابته بالعروسين؟

نحيلا، شائبا، يتكئ على عصاه، يده ترتعش، كأنه هلال آخر شهر رمضان، ينتابه سعال حاد، يكاد يلفظ أنفاسه، يشهق، يشهق، ثم يغيب السعال، بيد مرتعشة، يستل منديلا قماشيا من جيب معطفه، يمسح اللعاب السائل من طرف فمه، يطويه، يعيده إلى مكانه.

يدخل المضيف حاملا صينية فيها كؤوس شراب اللوز، حين يصل إليه، يعتذر، الرجل الذي بجواره يقول للشاب: اعذره، عنده السكري، لا يستطيع تناول الشراب، الشاب يتجاوزه، ومن قبل اعتذر عن تناول القهوة، يا إلهيّ لماذا جاء؟

أتناول بيدي كأس الشراب، أضعه على منضدة صغيرة أمامي.

ألتفت إلى الرجل الذي بجواري، وأنا لا أعرفه أسأله:

–ما قرابة هذا الشيخ العجوز بالعروس؟

وأثبت جهاز تقوية السمع خلف أذني، أسمع صوته ضعيفا، وهو يقول:

–هو جد العروسين، هما أولاد عم.

أسأله بفضول:

–كم تقدر عمره؟

يلتفت الرجل إلي، يحدق بي، ويتكلم، لا أسمع، أثبت مرة ثانية جهاز تقوية السمع وراء أذني، يبدو أنه حان وقت تبديل هذا الجهاز اللعين، ألتفت إليه، أسأله:

–ماذا قلت؟

يصلني صوت الرجل شاحبا، وهو يقول:

–هو أصغر منك على الأقل بخمس سنين.

ثم يفاجئني سؤاله:

–وما صلتك بالعروسين؟

أتلعثم، ينتابني سعال حاد، أجيبه:

–صلة قرابة بعيدة، لا أتذكرها، أنا حضرت نيابة عن ابني، أوصاني بالحضور، ابني مسافر، الله يوفقه، أخو العروس صديق ابني.

شمس الخريف

لونه كالشمس يدفئني، يرسل تغريده طويلًا، يتدفق كشلال، أظنه لا ينتهي، هو يناديني، يتوجَّه عبر القضبان نحوي، والوفرة من الريش الأصفر الناعم تقبُّ في عنقه، ما أنعم ريشه، أود لو ألعقه بلساني، آه، بيني وبينه قضبان، مالي أسترخي أمامه، أطمئن، أمدُّ قوائمي فوق حافة الشرفة، وهو يتأمل ذيلي، كأنه يريد أن يقفز فوق ظهري، أحس بأظفاره الناعمة تدغدغني، بمنقاره الناعم ينقر في رأسي، ينقر أذني، يغرد فيها، يهمس لي، يحس بنشوتي، يحط أمامي، ويرفع وجهه نحوي، ويغرد ويغرد، في داخلي تتحرك أشواق كل جدَّاتي، أحس بالجوع، مخالبي الغائصة في داخل أقدامي تبدأ تلقائيًّا بالتحرُّك نحو الخارج، أضغط بصدري على الأرض، كأني أختبئ وراء العشب، أستجمع كل قوتي، أثبت عيني على القفص المتدلِّي من السقف بسلسلة، أقدِّر المسافة بيني وبينه، أريد أن أنقض، وهو يرسل لحنًا طويلًا يمتد ويمتد، ثم يتقطَّع في شقشقات متوترة، ثم تهدأ فتتموج لتنساب رخية في انثيال ناعم، تقرقر بطني، أهجم، أقفز، أضرب بمخلبي، ويتطاير الريش، وألعق الدم، وأكسر العظام، آه، لكن القضبان تحول بيني وبينه، وهو لا يدري ما بنفسي، أو لعله يدري، يسرُّه أن تنغرس المخالب في لحمه، سامحني،

هي أفكار جدّاتي ورثتها، وراودتني، وها أنت ذا تغرد وتغرد لي، تقفز نحوي متعلقًا بالقضبان، عيناك سوداوان جميلتان، يؤلمني أنك لا تستطيع أن تطير إليَّ، وأني لا أستطيع أن أقفز إليك، يد العجوز الراعشة تستند على عصاه، وهو قادمٌ نحوي، حاملًا صحنًا صغيرًا، يده ترتعش، والحليب يتخضخض في الصحن، أرقبه، النعاس يغلبني، أحس بأجفاني تنغلق، ما أجمل الكسل، ما أجمل الدفء والتغريد، لا أريد الطعام، يكفيني التغريد المتسلل عبر مسامي كلها.

*

هي ذي قطتي، شقراء هي بلونها الذهبي، كأنها التفاحة، هناك في حديقة جدي العجوز في أعلى الغصن تفاحة مثل قطتي، كم أود لو أنقر التفاحة وأمتص شذاها وعسلها، أو أغمس منقاري في رأس قطتي وأداعب شعرها، ثم أغط في ظهرها، أدخل في شعرها الأشقر فأغيب، وأعبث بأظفاري في فقرات ظهرها، ثم أقفز أمامها أرى إلى جيدها الناعم، أحس فيه بالدفء، أدغدغها بمنقاري، فتقرقر، وأغرد وأغرد، وأرى ذيلها، كم هو جميل، وهو يلتف، وتطرف بعينيها، تغمضهما ثم تفتحهما، كأنها تود لو تراني في الحلم وفي اليقظة، كم نومها هادئ وجميل، مسترخية في دفء شمس الخريف فوق الحافة، وأنا منتصب فوق عود، متوتر، دائمًا، متحفز، متشنج مشدود الأعصاب والأوتار، لا أهدأ،

ولا أستقر، أنقر القضبان، وأتعلق بها، من جهة إلى جهة، وأعود إلى جهتها، عيناها زرقاوان جميلتان، ووجهها مدوَّر ناعم، ولسانها أحمر، كم هو جميل حين تلعق به جانب فمها، أحيانًا تثيرني مخالبها، أرى جدي يمد لها يده، فتلمسه بيدها، وهي تخمش ظاهر يده، تدغدغه، فيضحك، ويمسح شعرها، يدغدغها تحت عنقها فتقرقر، ليتها تخمش جناحي، وليتني أداعب عنقها بمنقاري، فتقرقر، أتطلع إليها، أشتهيها، ولا أطالها، هي مثل تلك الشمس الخريفية، تدفئني، وأتطلع إليها، أرف بجناحيَّ الضعيفين نحوها، أتعلق بقضبان القفص، أمد رأسي من خلالها، ولا أستطيع، أريد الطيران إلى التفاحة إلى الشمس، احمليني على ظهرك، يا قطتي، وتعالي لنطير معًا، آه، جاء جدي العجوز، بجُنْحِ تفاحة، يضعها بين قضبان القفص، لا، لا، أنا أريد تلك التفاحة على الشجرة، أخرجني أرجوك، أريد مداعبة قطتك.

*

لم يبقَ لي سوى عصاي، وهذا الكرسي الهزاز، أسترخي فيه هنا، أمامي قطتي والكناري، الشمس الكئيبة تغمرنا معًا، تدفئ عظامي النخرة، أشعر بها تدغدغ وجهي، أحس بخدر لذيذ، وأنا أغمض عينيَّ، لا أستطيع فتحهما، أرفع رأسي إلى أعلى، أفتح عينيَّ قليلًا، هناك في الشرفة البعيدة العالية صبيّة تروح وتجيء وهي ترفع إلى أذنها هاتفها

الجوال، وتتكلم، لست متأكدًا، هل هي صبية؟ ليست عجوزًا مثلي بالتأكيد، بصري الكليل لا يساعدني، ونحن صغار كنَّا نتبارَى في النظر إلى الشمس، أيُّنا يستطيع التحديق فيها فترة أطول، هل أستطيع الآن النظر إليها، ليتها تحملني إليها هناك، لأشعر بالدفء أكثر، أغمض عيني، القطة بين نوم ويقظة، تفتح عينيها وتغلقهما، والكناري يرسل إليَّ لحنه المتوتر في هوس وجنون.

*

ما يزال في عصاي بقية من قوة، أظنها ما تزال تستطيع تحمُّلَ اتكائي عليها، وإن كنت أخشى أحيانًا أن تنكسر.

انتقلت إلى دار جديدة في الحي الشرقي.

كل يوم أو يومين وأنا خارج إلى عملي، أو أنا عائد منه، أراها، من بعيد، تخطر على الرصيف، مشيتها هي مشيتها، شعرها هو شعرها، التفاتتها هي التفاتتها، تقترب، أقترب، أهم بمناداتها، لكنها ليست هي.

بعد بضع سنوات انتقلت إلى دار جديدة في الحي الجنوبي، وأنا خارج من الدار، ذات يوم، على الرصيف التقيتها، وجها لوجه، هي هي نفسها، أكاد أناديها، تمرّ بقربي، عطرها هو نفسه عطرها، بين يوم وآخر، أراها، أفرح، هي تسكن إذن في الحي نفسه، ولكنها ليست هي.

أصعد إلى الحافلة، وأنا ماض إلى الطبيب، في مراجعة خاصة، الحافلة مزدحمة، تتوقف الحافلة، ومن غير قصد، أمد نظري، وإذا هي هناك، تهم بالنزول من الباب الخلفي، هي نفسها، هي هي من غير شك، أقتحم الزحام، أهم بالمضي إلى الباب الخلفي، أريد النزول وراءها، ولكن الحافلة تنطلق.

أحمل ملف معاملة التقاعد، وأنا أصعد أدراجًا، وأهبط أدراجًا، تقول لي الموظفة، مشفقة على تعبي، بقي توقيع واحد

قبل توقيع المدير العام، هو توقيع السيدة، وتذكر اسمها، اسمها هو اسمها، يهبط قلبي، يجف لساني، أقرع الباب بيد راعشة، وأدخل، تضع توقيعها، وأخرج.

على النقالة، يدفعني الممرض إلى غرفة العمليات، بدأ المخدر يأخذ مفعوله، أكاد لا أرى، ثلاثة أطباء من حولي، على أفواههم كمامات بيض، أسمع صوتا يناديها باسمها، اسمها هو اسمها، على فمها كمامة بيضاء، آخر ما أراه وجهها، هي هي نفسها.

بعد خروجي من غرفة العمليات، أسأل عن ممرضة اسمها هو اسمها، يقول لي الطبيب: أشرفت على تخديرك، وساعدت على إنعاشك، غادرت، تقاعدت، هذا آخر يوم عمل لها في المشفى.

في المطار، وأنا أنتظر وصول ابني من الخارج، أراها تدفع عربة مثقلة بالحقائب، هي نفسها، لا يمكن أن تخطئها عيني، شعرها هو شعرها، التفاتتها هي التفاتتها، يضطرب قلبي، ترتعش يداي، أسرع نحوها، ألهث في إثرها، عجلات عربتها سريعة، قبل أن أصل إليها أراها تغيب في بوابة المغادرين، أهم بدخول البوابة، رجل الأمن يمنعني، أرجع خائبا.

أضمها إلي، تضمني إليها، تدخل في صدري، أشدها إلي، رأسها بين يدي، في شعرها رائحة الأرض، في جسمها

دفء السماء، دقات قلبها هي دقات قلبي، في أنفاسها الربيع والخريف والشتاء والصيف، الشفاه تكاد تتلامس، ترتعش، وتغيب، من أين جاءت؟ متى؟ كيف؟ حضورها حقيقي، لم يكن حلما، هو حلم، سنرجع، سنكمل الحلم، وأنهض من الفراش.

أنتقل إلى دار صغيرة، متواضعة، في الطابق الثاني، أقرأ على باب شقة المقابلة لشقتي: منزل السيدة، اسمها هو اسمها.

أصعد مع ابني الدرج، وهو يقول لي:

–أمضيت عمرك في الانتقال من دار مستأجرة إلى دار، حان الوقت لتستقر في دار هي ملك لك، أرجو أن تعجبك.

أقف ألتقط أنفاسي، يضيف:

–دار صغيرة، مريحة جدا، في الطابق الأول، اشتريتها بكامل فرشها، فرش قديم، لكنه بحالة جيدة جدا، صاحبة الدار توفيت، ابنها الوحيد لم يستطع العيش في دار عاش فيها مع أمه، باعني إياها بفرشها.

أمام الباب أقف، أضع يدي على قلبي، لا أصدق ما اراه، أستند على كتف ابني، يسألني:

–هل تعبت من صعود الدرج، هي عشر درجات.

على الجدار، إلى جانب الباب لوحة تحمل اسمها.

ندخل الدار.

فورا أقول لابني:

–سأعيش مع هذا الأثاث، سأعيش مع كل ما فيه من ذكريات.

يعلق ابني:

–أعرفك يا أبي، تحب الأشياء القديمة.

في عمق الصالون وفي الجدار تنفتح الستارة ذات الشقين عن صورتها.
أقف أمامها ذاهلا.
يقول لي ابني:
–سيأتي بعد قليل ابنها ليأخذ صورة أمه، رحمها الله.
أقول له:
–لن نسمح له، أنت اشتريت الدار بكل ما فيها.
يعلق وهو يضحك:
–لكنها صورة أمه
وأهمس في سري:
–لكن صورتها هي صورتها.

جاءت في غيابي

منذ شهر، وأنا كل يوم، عند الساعة الخامسة قبل الغروب، في الركن نفسه من المقهى، وإلى المنضدة نفسها، أتخذ مكاني، ويأتيني النادل بفنجان قهوة، في السادسة تماما، أغادر.

منذ عهد نوح، ونحن معا نحتسي القهوة معا، هنا، في الركن نفسه، من المقهى، وإلى المنضدة نفسها، نتقابل.

ثم، فجأة، غابت، مر شهر، وهي لا تأتي.

اليوم، يقول لي النادل:

–أمس، بعد مغادرتك المقهى بدقائق قليلة، جاءت، وقعدت هنا في المكان نفسه، وطلبت فنجان قهوة.

آخذ رشفة من الفنجان، وأغادر المقهى، إلى الأبد.

صُحْبَة

منذ خمس سنوات، بل أكثر، ومقعدي في غرفة غسيل الكلى، هو مقعدي، لا أغيره، كل أسبوع أقعد فيه مرة، ساعتين، ثم بدأت أقعد فيه مرتين في الأسبوع.

الرواد هنا مثل الرواد عند الحلاق، نتعارف، نتبادل الطرائف والأخبار والنكات، إلى جواري بهجت، دائما هو على يميني، على شمالي نزار، ثم إلياس، ومهند، على اليمين أيضا محمد، ثم جاسم.

غاب جاسم، بعد سنة غاب نزار، ثم غاب مهند، غاب بهجت، حل بعدهم رواد آخرون.

لا أعرف متى سأغيب.

يا رفاقي ساعدوني

أمضي إلى الحديقة أبحث عن المقعد الذي كنا قد حفرنا اسمينا عليه. نسيت موضعه لا أعرف أين هو، أحاول تذكر الشجرة التي كنا نحتمي بها من المطر الرذاذ، لا أكاد أميزها من بين أشجار كثيرة، تهاوى بعضها على الأرض، وبعضها علت الطحالب جذعها، ونخرها الدود.

أقلب الأوراق المهترئة في دفتر هاتفي القديم، الملغى منذ سنوات، أبحث في الهاتف الجوال وعهدي به جديد، وأنا أعرف أنه ليس لها اسم فيه، فلم يكن عندنا في الزمن القديم هاتف جوال.

ما فقدت ذاكرتي... أتذكرها، لكن ما عدت أتذكر اسمها.

يا رفاقي ساعدوني.

ثوبها

بقيت في البيت مع الحاسوب وحدي، ذهبتْ في زيارة إلى أختها، طالت الزيارة، وامتدت، طالت، وامتدت.

ضجرت مني جدران الدار، وأنا من غرفة إلى أخرى ألوب، أنفث زفرات صدر ضاق.

من خلال النافذة أرقب الغيوم السود وهي تمر، غيوم سود كئيبة، تمر سحابات سحابات، وتغيم السماء، والجو يكتئب، صمت موحش، ولا نجوم في السماء.

يفرغ الرصيد من الهاتف الجوال، الهاتف الأرضي ملغى من زمان.

ينتهي الشحن من الحاسوب، تنطفئ الشاشة.

قطط سود في حديقة الجيران، تتصارخ، تتصارع على قطة شقراء، تفر هاربة من الجميع.

بَرْدٌ يقشعر منه حديد المدفأة، وليس عندي قطعة حطب.

أفتح خزانتها، أحمل ثوبها، أضمه إليَّ، أتدثر به.

أكاد أغفو، أنام.

تذكر لي جدتي أنها كانت تشغلني بثوب أمي ألتف به، وتلهيني، عندما تتأخر عن عودتها إلى البيت.

سوق المدينة

كل يوم في ضحكة الصباح أو في غبشة المساء
في صيف خانق أو في شتاء مقشعر بردًا
في خريف أصفر راعش أو في ربيع أخضر بهيج
على رصيف مزدحم تتعثر خطاه
أو في مقهى تصخب موائده الحديدية والكراسي
أو حتى في سواد مقبرة صامتة
نلتقي ونلتقي ونلتقي
ثم في زحمة سوق المدينة
أضعتها.

هل ترجع إليَّ فُلَّة؟

أحس بحركة في المطبخ، هي فوق سطح الغسالة، متمدِّدة في استرخاء، تمدُّ رجليها، كأنها عروس، بيضاء كالثلج، عيناها تتألقان، وجهها جذاب، أنوثة مكتملة، لا أعرف كيف أجد السكين بيدي، لكنها هادئة، مستقرة، من أين جاءت الحركة؟ ألتفت، زوجتي تبرز، لا أعرف كيف ظهرت، تصيح: "لا"، السكين ما تزال في يدي، أتردَّد بينهما، أحس بالاختناق، وأنهض من النوم.

*

أنا ما قتلتها، وما قتلت القطة، ولم يكن عندنا في يوم من الأيام قطة، وما فكرت حتى في قتلها، أحبها، تزوجنا عن حب، وكانت وفاتها فجأة، ولكنها طبيعية، جلطة في الدماغ، مرت عشر سنوات على وفاتها، وكانت في الستين، لماذا يراودني هذا الحلم، هي المرة الرابعة التي أرى فيها مثل هذا الحلم، الكابوس.

*

"أستيقظ مع شروق الشمس، أجده قاعدًا على حافة الشرفة، عند الجيران، كأنه ينتظرني، هكذا دأبه كل صباح، كأننا معًا كلَّ صباح على موعد، أشقر، شقرة كاملة، لا بقعة من لون آخر، عينان زرقاوان، تناديان، شاربان مشدودان،

متوتران، كأنهما أوتار كمان، قاعد على مؤخرته، واقف منتصبًا على قائمتيه، كأنه تمثال فرعوني، هو يشبهكَ، كأنه أنتَ، أهمس له باسمك، عيناه تزدادان تألقًا".

هكذا كانت تقول لي.

أسعد بكلامها، وعيناها تسقياانني نغمًا، أحس بجداول تنساب في الحقول، سنابل تنتصب في الشمس، تمتلئ حبًّا ناضجًا يتفجر، شقائق النعمان تتراقص.

ثم بدأت تقول لي: "قط الجيران، هل تذكره؟ أنجبت زوجته تسع قطط صغيرة، بيضاء كالثلج، كلها تشبه الأم، أنا لم أصدق، تسع قطط صغيرة، غير معقول، هكذا قال الجيران لأمي، وهكذا قالت لي أمي، أنا ما رأيت أي شيء".

وذات يوم قالت لي: "هل تذكر قط الجيران، كم كان يشبهك، أو، كم كنت تشبهه، اليوم زرت أمي، فور دخولي إلى البيت، أسرعتُ إلى الشرفة، لم أجده، وأسأل أمي، تقول لي: الجيران أنفسهم لا يعرفون، غاب، ذهب، ولم يرجع".

كأنني سقطت في بئر.

*

القط، لا، لا تذكريه لي بعد اليوم، لا يمكن أن نربي قطًّا في منزلنا، منزل صغير، مغلق، ثلاث غرف، وشرفة ضيقة، لا تعودي إلى ذكره، أرجوك، نعم، كنت أسعد بكلامك

عنه، في أيام الخطبة، أما الآن، فلا، كان يشبهني، لكن الآن: لا، أرجوك، لا أحب ذكره.

وتنساه، وتمر الأيام، ولكن تعود إلى ذكره.

"هل أشتري لك قطًّا يشبهه؟" وترد بانكسار: "وما جدوى شرائه الآن، مللت، بعد هذا العمر، تتنازل، وتقول: "ستشتري لي الآن قطًّا يشبهه؟ سامحك الله، لن تجد قطًّا يشبهه".

*

أرجع إلى البيت، بسيارة أجرة، أتوسل إلى السائق: "أرجوك، احمل لي إلى الدور الأول هذا الصندوق"، وأتوكأ على العصا، "بل سأحمل عنك الصندوقين، أنت تشبه جدي رحمه الله".

فورًا أفتح الصندوق الأول، وتنطلق في مرح، فلة، أنت فلة، اسمك فلة، بيضاء كالثلج، وجه مثير، أنثى، جميلة، جميلة، عينان خضراوان، ناعمة.

البهجة تغمرني. ومن الصندوق الثاني أمدُّ لها فراشًا من قطن ناعم، وإلى جانبه أضع الوعاء المفتوح، وأصب فيه قليلًا من الرمل، كيس الرمل يكفي شهرين، الشكر للسائق، إذ حمله عني، أعيد الكيس إلى الصندوق، إلى جواره مجرفة صغيرة، وسطل صغير، هنا تنامين يا فلة، وهنا تتركين البراز، البائع قال: هي مدربة، تعرف كل شيء.

تقترب من قدمي، تتمسح بي، تحك رأسها بساقي، وأحملها.

في مقعدي العريض أسترخي، وهي تسترخي في حضني، أدغدغ عنقها، تقرقر، قرقرة خافتة، كم هي ناعمة.

سامحيني يا بهية، اليوم اشتريت لك قطة، أعرف، تأخرت أنا كثيرًا.

*

وتقف سيارة الأجرة، أمام المقبرة.

أستطيع حمل الصندوق، وأمضي متوكِّئا على العصا.

هنا قطتك، يا بهية، هي فلة، اسمها فلة، بيضاء، ناعمة، حنون، لا تنام في فراشها الناعم، لا تنام إلا بقربي، في الفراش، فراشي، لا تتركني وحدي، ولا تأكل إلا بيدي، أحببت لأجلك القطط.

ويتدفق حولي الأطفال، وهم يمرحون.

– ما هذا؟ قطة!

– ولماذا هي في الصندوق؟

– نريد رؤيتها.

وأحملها بين ذراعي، أمسح ظهرها بيدي، أتلمس شعرها الطويل الناعم.

كل الأطفال يريدون مداعبتها. من أين جاؤوا؟ لا أعرف، هل يأتون إليك كل يوم، ليمرحوا عند قبرك، هل هم أولادك؟ بهيَّة، أرجوك، سامحيني، حرمتك من القط.

*

لا أعرف سر عشقها للقطط.

فور دخولنا مدينة "وان"، رأيتِ أنتِ تمثالًا لقط أبيض كبير، أنا رأيته أيضًا، لكن أنت جُنَّ جنونكِ، في ساحة وسط المدينة تمثال قط يقف منتصبًا على قائمتيه، وصحتِ:

– هو، يشبه قط الجيران، لكنه أبيض، ما هذا التمثال؟

واصطحبنا المرافق لقمان بعد يومين إلى مجمَّع خاص بالقطط، حيث تُرَبَّى القطط في محمية صغيرة، داخل قفص كبير، كلها بيض، يحمونها ويرغبون في تكاثرها، لكل عين لون، غير لون العين الأخرى، وحدَّقنا، حقيقة، لكل عين لون غير لون العين الأخرى، حمراء وصفراء، وتمنيت أنتِ شراء قط، تمنيتِ قطًّا هدية، وعند المغادرة أهدانا المرافق صندوقًا، قال لنا:

– احرصوا عليه.

وسألتِ أنت المرافق ممازحة:

– نخشى أن يفلت أو يختنق.

– لا تخشي، سيدتي، لن يفلت، ولن يختنق.

عندما رجعنا إلى الوطن، فور دخولنا إلى البيت أسرعتِ إلى فتح الصندوق الهدية، وأردت استخراج القط الفخاري، ووجدتِه محطَّمًا إلى قطع صغيرة، لا يمكن لصق بعضِها ببعضها الآخر، مع أنه كان ملفوفًا بكيس بلاستيكي خاص فيه فقاقيع من هواء تحميه، وكان صندوقه محشورًا بين الثياب.

بهيَّة، سامحيني، أعترف لك الآن: أنا في الفندق، وفي غيابك، حطمته، كسرته إلى قطع صغيرة، لا يمكن حتى إعادة لصق بعضها ببعض.

*

أمس، وهبت الدار، دارنا الصغيرة، إلى دار رعاية الأيتام، لكي ترضَيْ أنت عني.

سامحيني، في السنوات الأخيرة حرمتك من زيارة دار رعاية الأيتام.

كنا كل عام، في ذكرى عيد زواجنا، نزور الدار، هكذا اتفقنا، بعد عشر سنوات من زواجنا، ونقدّم للأطفال الورود والهدايا، قلتِ لي:

. انظر، هذا الطفل، يشبهك في طفولتك، رأيت صورتك، وأنت طفل، كأنه أنت.

وتسألين المشرفة عن اسمه.

وأدير ظهري وأمضي، أسرع، أكاد أسمع صوت المربية، كأنها تنطق باسمي أنا.

أحسست، أن لديك رغبة في تبنيه.

بهية، أرجوك، سامحيني.

*

وتفلت فلة، تطير، تمضي بين القبور، يلاحقها الأطفال.

أظل إلى أن تغيب الشمس.

عند الباب، وأنا أغادر المقبرة، قال لي الحارس:

– يا عم، عندما دخلت كان معك صندوق، فيه قطة، هل نسيته؟

– لا، ما نسيته، تركته عند قبر زوجتي.

. لكن القطة ستموت من الجوع.

– الأولاد داعبوها، وأفلتت من يدهم.

– أي أولاد؟ لا يوجد هنا في المقبرة أولاد.

– أنا فتحت لها باب الصندوق، وتركتها.

– فهمت، تريد التخلص منها، هي قطة زوجتك، تخلصتَ من الاثنتين، هكذا الرجال دائمًا، لكن، اطمئن، سترجع إليك.

ويضحك:

– طبعًا، أقصد القطة، لا زوجتك.

أدير ظهري إليه متوكِّئًا على عصاي، وأمضي.
أسمعه يقول:
– لا أعرف لماذا تحب النساء القطط، ويكرهها الرجال.

*

في البيت، وفي مقعدي العريض أسترخي وحدي، مثل قط نائم مسترخيًا، عصاي تستند وحدها إلى جانب المقعد، أحس بها تسترخي مثلي، تكاد تسقط.
أحس بأجفاني ثقيلة، لا أكاد أستطيع فتحها، أشدها بين حين وآخر، أحاول فتح عينيَّ قدر المستطاع، أحاول طرد النوم، والنوم يغلبني، أخشى يعاودني الحلم.

*

قال حارس المقبرة:
– القطة ترجع إلى بيتها.
هل يصح قوله، فترجع إليَّ فلة؟

ارتفاع الضغط

تقول لي زوجتي: " فور استيقاظك تُسرع إلى التلفزيون لتشاهد الأخبار، وترفع ضغطك".
أقول لها: "أنا لا أشاهد الأخبار، أنا أشاهد المذيعة".

ثمن فنجان القهوة

نظر في ساعة يده، ثم هبَّ واقفًا، حمل فنجان القهوة، حرّكه، هزّه، خضّه، وصبّ بقية ما فيه من ثمالة ورواسب في فمه، وهمَّ أن يلعقَ جوانبه بإصبعه، ثم ضغط على كتف الطالب، وقال له: "هل تعرف؟ ثمن هذا الفنجان في المقهى ثلاثة دولارات، قل لأمك شكرًا للقهوة، لكن، قل لها: لا تقتطع ثمن الفنجان من أجرة الدرس"، ويقهقه عاليًا، ثم يخرج.

*

يلتفت إلى الطالب الذي على يمنيه، ويقول له: "استيعابك جيد، انتهى الموضوع المقرر لدرس لهذا اليوم، لعلي أرهقتك، وأظن أني أخذت من وقتك أكثر من ساعة ونصف، يجب أن ترتاح".

ويرفع فنجان القهوة إلى فمه، ويرتشف بهدوء بقية ما فيه.

ثم يقول للطالب: "قهوة ممتازة، رائعة، لم أذق مثلها حتى في الشيراتون، بلّغ تحياتي لأمك، مع الشكر لها".

*

يروي الطالب لأمه ما جرى، ويبلغها سلام كل منهما. تشك في كلامه، وتقول له: "لعلك أخطأت".

ويؤكد ابنها أنه لم يخطئ، وأن مَنْ قال ثمن هذا الفنجان ثلاث دولارات هو أستاذ اللغة العربية.

حفرة

لم ندع شبرًا من الأرض إلا حرثناه
لم ندع شجرة في الغابات إلَّا ذُقْنا من ثمارها
تدحرجنا معا في السهول والوديان
شربنا من كل الينابيع
غُصْنَا معًا في أعماق المحيطات والبحار
سَبِحَنا في الأنهار
من النبع إلى المصب
وعبر الشلالات
صَعَدْنا إلى قمم الجبال
تسلقنا إلى النجوم
عانقنا القمر
كم لهونا
حسبنا الدنيا كرة صغيرة مدورة
ثم أخيرًا
في حفرة صغيرة
معًا سقطنا

صداقة جديدة

كل يوم أزوره، نحتسي القهوة، يقرأ لي قصيدة.
كل يوم يزورني نحتسي القهوة معًا، أقرأ عليه قصة.
نتفق، نختلف، ثم نتفق مع القهوة.
كل يوم أمشي إليه، كل يوم يمشي إلي.
بيته قريب من بيتي.
لم يهاجر، لم يعتقل، لم نختصم، لم يمت، لم يبتلعه حوت، لم يقعد بنا شيخوخة ولا مرض، لم ننقطع عن الكتابة، لكننا لم نعتد نلتقي.
بدأنا صداقة جديدة
صرنا نكتفي برسائل عبر الواتس.

ما يزال اللعب مستمرًا

مد نحوي قبضتيه المغلقتين، لم أفكر كثيرًا، اخترت قبضة يده اليمنى، فتحها، وهو يقهقه، قال:

- حظك أسود.

وضعت الجنود في المقدمة، سخر مني وقال:

- يجب وضع الملك أولا ثم الوزير ثم...

قلت له:

- بل الجنود أولًا لحمايته.

رد ضاحكا:

- لن يحميه شيء.

حركت جنديا مربَّعًا وحدًا، قفز بحصانه، ركله بقدمه، رماه خارج الرقعة.

نظرت إليه مدهوشًا، وسألت:

- حركة الحصان غير صحيحة.
- أنا أقرِّر الصحيح من غير الصحيح.
- ولكن للعبة أصولها.
- هذه ليست لعبة، هذه معركة.

تراجعت إلى الوراء، وقلت له:

- أنسحب.

قهقه عاليا:

- لا يجوز الانسحاب، يجب أن تتابع اللعب إلى النهاية.

رفعت الملك، وقلت له:

- ملكي مات.

قهقه أعلى فأعلى، ثم قال:

- هذا استسلام، تسليم، لا أقبل به، يجب أن تلعب، ويجب أن أنتصر، أريد نصرًا كما يقال: مؤزَّرًا، ما معنى مؤزَّرًا؟
- لا أعرف.
- العبْ.

حركت جنديًّا مربَّعين إلى الأمام، قفز بحصانه، وركل الجندي بعيدًا.

نهضت، جذبني من يدي، وصاح:

- اقعد، تابع اللعب.
- هذا غش.
- لا، الغش يختلف، هذا لعب حر.
- سألعب مثلك.
- لا، لا يمكن أن تلعب مثلي، عليك أنت التقيد بقانون اللعب.

مددت يدي لأحرك جنديًّا على الأقل، لم أجد، لا الجند ولا الملك، ولم أجد حتى الرقعة.

بعد ثلاثين عامًا

تصلني من صديق عزيز رسلة عبر الواتس:

اليوم قرأت روايتك "الكوبرا تصنع العسل"، سعدت بها كثيرًا، أعادتني إلى حلب، لا أنسى، أنت أهديتني إياها ورقيًّا تحت سماء حلب، لكن للأسف لم أقرأها، اليوم أقرؤها على سطح الحاسوب في ملف pdf تحت سماء أمستردام، بعد ثلاثين عامًا.

على الرصيف

على الرصيف بالقرب من حاوية القمامة كتب ودفاتر وأقلام، كتب متناثرة، مغبرة، يعلوها الاصـــفرار، حافات بعضها محترقة، بعضها ممزقة الغلاف.

دفاتر تعابثها الريح فتتطاير أوراقها، تظهر خطوط وكلمات مشطوبة وأخرى حولها دوائر وإشارات بين السطور وعلامات.

بقايا أقلام رصـــاص، وأقلام حبر ســـائل مكســـورة الريشة، أو ضائعة الغطاء.

محابر جفت في داخلها الأحبار.

يقول لي البائع: خذ ما تشـــاء، وادفع ما تشـــاء، لن نختلف في الأسعار.

أسأله:

-هل هي بقايا مكتب حكومي.

-بل هي بقايا مكتبة أديب توفي منذ زمان، لا أحد يلقي عليها حتى نظرة عابرة، أنت أول من وقف أمامها واهتم، احملها كلها إذا شئت، ادفع فيها ثمن علبة سجائر، أنت أول من وقف مع المغيب، إذا لم تحملها، ســأرمي بها هنا في الحاوية، وأشعل فيها النار.

أمد يدي، ألتقط كتابًا، أنفض عنه الغبار، فأجد بقايا حروف من اسم المؤلف، أضع نظارتي المكبرة على عيني، أدقق في الاسم، فإذا هو اسمي أنا.

عصاي

السقف مزعزع، يكاد يسقط، حلقات السلسلة التي تحمل الثريا صدئة، الحلقة الأولى في الأعلى تكاد تنفك، الجدران متشققة طولا، متشققة عرضا، الأبواب الخشبية نخرة أكلها الدود، زجاج النوافذ بين مكسور ومتشظٍّ على وشك السقوط، الفرش والأثاث يغط تحت ركام الغبار، الكرسي الهزاز الوحيد تضعضع من تحتي وانهار، وقفت، لم أقع، عصاي التي ورثتها عن جدي، والذي ورثها أيضا عن أبيه عن جده، مقبضها في يدي، قائمة، منتصبة، كالحديد، الأرض اهتزت وتشققت أخاديدَ أخاديدَ، لم يبق أي ثانية، أضرب بعصاي، وإذا المنزل قصر مشيد، عامر الجدران بعيد السقف مضاء بمئات الثريات، مشرق الأنوار، حافل بالأولاد والأحفاد، وإذا أنا وحدي مستلق في مستطيل، تطبق فوقي صفائح من حجر أبيض.

من وراء زجاج النافذة

قطة شقراء ناعمة، ترخي جسمها كله فوق سور الحديقة، مغمضة العينين، مسترخية، لا أعرف بماذا تحلم، ناعمة بدفء شمس تشرين.

عصفور يطير من فوق غصن مكسو بالثلج، يرف بجناحيه ونُدَف الثلج تتطاير حوله، يحطّ على الرصيف، يلتقط قطعة بطاطا مقرمشة سقطت من يد طفل.

فراشة بيضاء صغيرة رقيقة الجناحين، ترف فويق زهرة ربيعية حمراء، لا تكاد تلمسها حتى ترف بجناحيها وتطير، باحثة عن زهرة أخرى.

بركة ماء صغيرة في عرض الشارع، تغطس فيها حمامة بنية، غير آبهة بسيارة بعيدة قادمة، ترفرف بجناحيها، تستحم تحت شمس تموز اللاهبة.

*

في الفصول كلّها أنا بين جدران غرفتي الصغيرة، أُطِلُّ على العالم من وراء زجاج النافذة، عيناي تحومان فوق شاشة الحاسوب، وأناملي فويق الحروف، أحلم بنشر قصة.

ومروحة السقف متعطلة، وخزان الماء في السقيفة يرشح، ومدخنة المدفأة مسدودة، وخلاط الماء الساخن بالبارد لا يعمل، وبالوعة الحمام مغلقة.

أحس أن مهمتي انتهت، وأني قمت بكل ما كان يمكنني القيام به، أو ببعضه، وأعترف بأني لم أنفذ كل شيء على أفضل وجه، كان يمكن أن أفعل الأفضل، كنت مقصرًا، هناك أمور كثيرة لم أنجزها، بل لم أستطع إنجازها، وإن كنت أحلم بإنجازها، وما يزال الحلم يراودني، ولكن لم يبق عندي وقت، ولكن مع ذلك كله، أنا راض عما فعلت، ربما إلى حد الغرور، وأحس أني لم أنل إلا بعض ما أستحق، كان يمكن أن أنال الأكثر، أحس أنه نالني ظلم كثير، ولكن لي ثقة بأنه سيكافئني، طبعًا هناك بعض الأخطاء قد وقعت فيها، بل كثير من الأخطاء، ولا أعرف هل سيسامحني، أعرفه كريمًا، وأعرفه شديدًا ومدققًا، طبعا كل شيء مسجل عنده، هناك من يرفع إليه كل كبيرة أو صغيرة من أقوالي وأفعالي، وأعتقد أنه يعرف حتى ما نويت أن أفعله، وإن كنت لم أفعله، هو يعرفني أكثر مما أعرف نفسي، حتما اقترب موعد رجوعي، وهذا لا بد منه، هو أرسلني إلى هنا، وقد حدد لي مكان عملي وإقامتي بالساعة والدقيقة، وأعرف جيدًا أنه قد حدد لي سلفا موعد مغادرتي ورجوعي، إلى هناك، ولكن لا أعرف متى، بل لا أعرف إلى أين سيكون بالضبط الرجوع، الإقامة هنا غير دائمة، ونحن جميعا نعرف ذلك، ونسعى إلى حفر

أسمائنا على الأشجار والجدران، ونسعى للتملك والبناء، هدايا وتحف كثيرة اشتريتها، وأثاث كثير ملأت به داري هنا، وأنا على يقين بأنني لا أستطيع نقل شيء منه إلى هناك، لأنه سيدعونني فجأة، وعبر الحدود لا يمكن إدخال أي شيء، أصعب شيء هو اجتياز الحدود، ليس سهلا على الإطلاق العبور، كثيرون ذهبوا قبلنا، أكثرهم مرض ودخل المستشفيات، واحتاج إلى أدوية كثيرة وأشكال مختلفة من العلاج، قليلون جدا بل نادرون هم الذين عبروا فجأة، ولا بد في الحالات كلها من التجرد من كل شيء، هذه هي القوانين هناك، لا يمكن أن تعبر ومعك شيء، كل شيء ممنوع، بل لا يمكن أن تعبر إلا وأنت مجرد حتى من ثيابك، إلا من رقعة قماش أبيض يلفك به صحبك، أحس بصوته يناديني، حاضر، وداعًا.

أ.د. أحمد زياد محبك
أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب
عضو اتحاد الكتاب العرب

السيرة الشخصية:

من مواليد مدينة حلب في ١٠/٥/ ١٩٤٩

تخرج في قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٧٢

حاز دبلوم الدراسات العليا في جامعة دمشق عام ١٩٧٣.

عين مدرسًا في ثانويات حلب عام ١٩٧٤.

عين معيدًا في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٧٧

نال درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث من جامعة حلب عام ١٩٨١.

نال شهادة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام ١٩٨٤.

رفع إلى مرتبة أستاذ في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٩٥.

عمل بالتدريس في جامعات تشرين في اللاذقية وفي الحسكة ودير الزور.

أشرف على عشرات الرسائل الجامعية للماجستير والدكتوراه.

النشاط الثقافي:

عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام ١٩٨٣.

عضو هيئة تحرير جريدة الأسبوع الأدبي من عام ١٩٩٧إلى عام ٢٠٠٠.

عضو جمعية العاديات بحلب منذ عام ١٩٩٨.

حاز جائزة القصة القصيرة في المركز الياباني بحلب عام١٩٩٥.

حاز جائزة البتاني في الرقة عن القصة القصيرة عام ١٩٩٧.

حاز جائزة جريدة الثورة بدمشق عن القصة القصيرة عام ١٩٩٨.

حاز جائزة الإبداع الأدبي بمدينة حلب عام ١٩٩٨.

أمين سر اتحاد الكتاب العرب – فرع حلب منذ عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠١٠.

أوفده اتحاد الكتاب العرب لمدة أسبوع إلى الجزائر العاصمة ١٩٨٨ في زيارة اطلاعية.

عمل بالتدريس في قسم اللغة العربية في جامعة سبها في ليبيا وأسس الدراسات العليا فيها ١٩٩٠ – ١٩٩٤.

أوفدته جامعة حلب إلى فرنسة ليحاضر في طلاب الدراسات العليا بجامعة ليون الثانية لمدة أسبوع عام ١٩٩٤.

رئيس قسم اللغة العربية بجامعة حلب ١٩٩٨_ ٢٠٠٠.

حاضر لمدة أسبوع في مدرسي اللغة العربية بمعهد تعليم اللغات الأم في استوكهولم بالسويد بدعوة من المعهد نفسه عام ٢٠٠٠.

كرمته جمعية النقد الأدبي في اتحاد الكتاب العرب بدمشق بالتعاون مع فرع اتحاد الكتاب العرب في حلب عام ٢٠٠١.

أوفدته جامعة حلب إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام ٢٠٠٢.

عضو لجنة تحكيم في مسابقات كثيرة في اتحاد الكتاب العرب وفي اتحاد شبيبة الثورة ومنظمة الطلائع وجائزة حلب للإبداع الفكري في مدينة حلب لدورات متعددة.

عضو لجنة تحكيم في مسابقة القصة القصيرة التي أعلنت عنها مجلة ديوان العرب (الرقمية) في القاهرة عام ٢٠٠٥، ودعي إلى القاهرة للمشاركة في حفل تزيع الجوائز.

عضو أسرة التحرير في موقع ديوان العرب ٢٠٠٨ والمستشار الثقافي في الموقع.

حاضر لمدة أسبوع في كلية الإلهيات في جامعة وان بمدينة وان في تركيا عام ٢٠٠٩

عضو المجلس الأعلى للغة العربية، بيروت، ٢٠٠٩.

أوفدته جامعة حلب مرة ثانية إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام٢٠١٠.

عضو لجنة تحكيم في مسابقة ديوان العرب للمجموعة القصصية عام ٢٠١٢، ودُعِيَ إلى القاهرة للمشاركة في حفل توزيع الجوائز.

رئيس تحرير مجلة بحوث جامعة حلب. سلسلة العلوم الإنسانية ٢٠١٥. ٢٠١٩

رئيس قسم اللغة العربية بجامعة حلب ٢٠١٧ . ٢٠١٩.

رئيس فرع حلب لاتحاد الكتاب العرب ٢٠١٥. ٢٠٢٢

حاز جائزة خير الدين الأسدي في حلب في القصة عام ٢٠٢٢.

عضو لجنة تحكيم مسابقة ديوان العرب للشعر عام ٢٠٢٤، ودعي إلى القاهرة للمشاركة في حفل توزيع الجوائز.

المؤلفات المنشورة :

حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢، ٤٣٠ صفحة.

من الحكايات الشعبية، (حكايات شعبية)، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣، ١٩٤ صفحة.

يوم لرجل واحد،(قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦ ، ٢٠٠ صفحة.

المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة)، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩، ٣٧٤ صفحة.

حجارة أرضنا، (قصص قصيرة)، مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٩، ١٠٩ صفحات.

الكوبرا تصنع العسل، (رواية)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٤٥ صفحة.

بدر الزمان، (مسرحية)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٠٤ صفحات.

حلم الأجفان المطبقة، (قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦، ٣٣٥ صفحة.

عريشة الياسمين، (قصص قصيرة)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ٢٥٦ صفحة.

دراسات في المسرحية العربية، (دراسة)، مطبوعات جامعة حلب، حلب، ١٩٩٧، ١٨٥ صفحة.

حكايات شعبية (نصوص ودراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩ ، ٧٧٠ صفحة.

دروب الشعر العربي الحديث (دراسة)، مطبوعات جامعة حلب، حلب ٢٠٠٠، ٢٤٠ صفحة.

لأنكِ معي (قصص قصيرة جداً)، دار شمأل، دمشق، ٢٠٠٠، ١٨٠ صفحة.

طعم العصافير (قصص قصيرة)، دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠١، ١١٢ صفحة.

قصائد مقارنة (دراسة ونصوص)، مطبوعات جامعة حلب، حلب،٢٠٠١، ١٢٥ صفحة.

دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة (دراسة)، منشورات دار علاء الدين، دمشق،٢٠٠١، ٣٠٠صفحة.

العودة إلى البحر(قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠١، ١٥٣صفحة.

الرحيل من أجل مها (قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م، ٢٤٨صفحة.

انكسارات (بحوث ومقالات)، دار المعرفة، بيروت،٢٠٠٤، ٤٤٠ صفحة.

الدكتور أحمد زياد محبك (كتاب التكريم تأليف مجموعة من الباحثين)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤ ، ٢١٦ صفحة.

متعة الرواية (دراسة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٣٤٨ صفحة.

من التراث الشعبي (دراسة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٢٧٦ صفحة.

وردات في الليل الأخير (قصص قصيرة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٢٣٦ صفحة.

عمر أبو ريشة والفنون الجميلة، (دراسة)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦، ٢٠٨ صفحات. طبعة ثانية، دار اللغات بحلب، ٢٠١٢.

قصيدة النثر،(دراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠٧، ١٢٥ صفحة.

قراءات في الشعر العربي الحديث، (دراسة)، مطبوعات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠٧، ٣٠٠ صفحة.

نوافذ وشرفات، (مقالات)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧، ١٦٠ صفح

ريش نعام، (قصص قصيرة جداً)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧، ١١٢ صفحة.

نجوم صغيرة، (قصص قصيرة جداً)، مطبعة الأصيل، حلب، ٢٠٠٨، ٨٠ صفحة.

الأعمدة والغزالة، (قصص قصيرة)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩.

اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين، (دراسة)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩، ١١٢ صفحة.

دراسات في المسرحية العربي، (طبعة جديدة مختلفة كلياً) مطبعة جامعة حلب، حلب، ٢٠١٠، ١٧٥ صفحة.

حمامات بيض ونارجيلة، (رواية)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١١، ١١٢ صفحة.

نقد السرد، (دراسة)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢، ١٤٤ صفحة.

فوق سطح العمارة، (مجموعة قصصية)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢، ١٥٨ صفحة.

أبو معتز والكناريات (مجموعة قصصية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٤، ١٩١ صفحة.

صورة القمر في الشعر العربي(دراسة)، دار ليوان الربيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٤، ٥٠٤ صفحات.

المرأة المكان الشعر، في شعر عبد العزيز خوجة، دار ليوان الربيع للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٤، ٢٣٤ صفحة.

ما أزال أنتظر (مجموعة قصص قصرة جداً)، الشارقة، كتاب الرافد، آب، ٢٠١٥، ١٦٥ صفحة.

شقة على شارع النيل (رواية)، دار أمل الجديدة، دمشق، ٢٠١٨، ٤٧٤ صفحة.

نظرات متبادلة، (مجموعة قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٨، ٢٢٩ صفحة.

السرير والمرآة، (مجموعة قصص)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٩، ٣٠٠ صفحة.

شهريار يعترف، (مسرحيات قصيرة)، وزراة الثقافة، دمشق، ٢٠٢٤، ٢٤٧ صفحة.

قوس قزح فوق غزة، (قصص قصيرة)، الآن، ناشرون، عمان، الأردن، ٢٠٢٤، ١٥٢ صفحة.

في انتظار فاتنة، (مجموعة قصص) طبعة خاصة، حلب، ٢٠٢٥، موقع فولا بوك.

الوردة في مكانها، (مجموعة قصص)، طبعة خاصة، حلب، ٢٠٢٥، موقع فولا بوك.

المؤلفات بالمشاركة:

ستة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعات سورية (١٩٨٦.١٩٨٨)

خمسة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعة سبها بليبيا (١٩٩٢)

كتاب أدباء من حلب (مشاركة وإشراف وتنسيق) (ستة أجزاء) حلب (٢٠٠٠. ٢٠١١)

عشرون مادة لموسوعة (أعلام العلماء العرب والمسلمين) للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس (٢٠٠٤. ٢٠٠٧).

الحركة الأدبية في بلاد الشام، مجلدان، إصدار الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، دمشق (٢٠٠٨).

من أبراج قلعة حلب، (مجموعة قصصية مشتركة مع مقدمة نقدية) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٢٢.

البريد الإلكتروني:
mohabek@gmail.com
هاتف المنزل : ٢٦٤٢١٣٢ ٢١ ٠٠٩٦٣
الهاتف الجوال والواتس: ٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢

المحتويات

أجمل القصص ٣

حدائق..... ٦

الفراشة ٨

عائدة..... ١٠

الأحفاد ١٥

فرح ١٨

الخزانة ٢١

الخبز ٢٢

بين هضبتين..... ٢٧

دقات ...على النحاس ٢٩

اسمها شمس ٣٧

مشاريع..... ٤١

حورية ٤٢
بنت وحيدة على وجه الأرض..... ٤٦
موسيقى ٤٨
قبل أن يفتح الباب.... ..... ٤٩
الصورة..... ٥٠
طفلها الأشقر ٥٣
تلك الرائحة ٥٥
جارها العجوز..... ٥٦
أما بعد..... ٥٧
رسائلها..... ٥٨
حروف ألف باء..... ٥٩
كشمس تموز..... ٦٢
ما أزال أبحث عنها ٦٥
الحياة حلوة..... ٧١

صلة قرابة بعيدة ٧٤
شمس الخريف ٧٦
لا تغيب ٨٠
جاءت في غيابي ٨٥
صُحْبَة ٨٦
يا رفاقي ساعدوني ٨٧
ثوبها ٨٨
سوق المدينة ٨٩
هل ترجع إليَّ فُلَّة؟ ٩٠
ارتفاع الضغط ٩٨
ثمن فنجان القهوة ٩٩
حفرة ١٠١
صداقة جديدة ١٠٢
ما يزال اللعب مستمرًا ١٠٣

بعد ثلاثين عامًا ١٠٥
على الرصيف ١٠٦
عصاي ١٠٨
من وراء زجاج النافذة ١٠٩
وداعا ١١٠
المؤلف ومؤلفاته ١١٢